هكذا

كان النبي ﷺ في رمضان

تأليف:

فيصل بن علي البعداني

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

ح مجلة البيان ، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
البعداني، فيصل علي
هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان/ فيصل علي البعداني - الرياض ١٤٢٨هـ
ص ١٧٧؛ ١٤× ٢٠ سم
ردمك: ٢ - ٥ - ٩٨٣٥ - ٩٩٦٠
١- شهر رمضان . ٢- السيرة النبوية. ٣- الصوم. أ. العنوان
ديوي ٢٥٣,٣ ١٤٢٨/٤١٨٨

رقم الإيداع : ١٤٢٨/٤١٨٨

ردمك: ٢ - ٥ - ٩٨٣٥ - ٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وإمام المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد أمرنا مولانا الكريم - سبحانه وتعالى - باتباع نبيه ﷺ، وأوجب علينا طاعته، فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وجعل - سبحانه - ذلك عنواناً لمحبته ودليلاً عليها، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وأخبرنا النبي ﷺ بأن ذلك شرط لقبول العمل، وسبيل لدخول الجنَّة، فقال ﷺ: **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»**(١)، وقال ﷺ: **«كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟! قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»**(٢).

---

(١) مسلم (١٧١٨).

(٢) البخاري (٧٢٨٠).

ولا يتحقق ذلك الاتباع ما لم يكن قائماً على رضى تام وتسليم كلي، في جميع جوانب الحياة، ظاهراً وباطناً، من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة[(١)]؛ لقول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

كما أنه لا بد أن يكون ذلك الانقياد مقترناً بتعظيم ومبنياً على محبة؛ لقوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[(٢)]. قال الحافظ ابن رجب: «والمحبة الصحيحة تقتضي المتابعة والموافقة في حب المحبوبات وبغض المكروهات»[(٣)]، وقال ابن حجر: «والمراد بالمحبة هنا حب الاختيار، لا حب الطبع، قاله الخطابي»[(٤)].

وسبيل العبد للوصول إلى تحقيق تلك الرتبة الجليلة هو التعرف على هديه ﷺ، والحال التي كان عليها ﷺ في شأنه كافة.

وليس بخافٍ على مسلم أن الهدي النبوي هو أكمل ما عرفت البشرية من هدي وأعظمه، وأنه بمقدار قرب العبد من هديه ﷺ وعمله وفق سنته ﷺ يتدرج في سلم الوصول إلى العلا، ويصعد في رتب الكمال البشري؛ ولذا جعله الله - تعالى - إماماً للناس وقدوة لهم، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/ ٥٢١.
(٢) البخاري (١٤)، ومسلم (٩٢).
(٣) جامع العلوم والحكم: ١/ ٣٨٩.
(٤) فتح الباري، لابن حجر: ١/ ٥٩.

فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب: ٢١].

ولما كان شهر رمضان المبارك من أعظم مواسم الإسلام وأجلّها، ومن أكثر الفرص السانحة أمام العبد لكي يتقرب من خالقه - تعالى - وينال رضاه، باتباع نبيه ﷺ.. كانت الحاجة ماسة للتعرف على هديه ﷺ في تسعة رمضانات صامها، في حياته العامرة بالاجتهاد في التعبد والطاعة.

ومن هنا جاءت هذه الورقات ساعية إلى الكشف عن الصفحات الرمضانية في حياة خير البرية ﷺ، قاصدة إلى سبر أخباره، واستنطاق أحواله، لإضاءة جوانب الاقتداء بأتقى الخلق لربه تعالى.

وذلك في فصول أربعة:

الفصل الأول: أحوال النبي ﷺ قبل قدوم رمضان.

الفصل الثاني: أحوال النبي ﷺ مع ربه في رمضان.

الفصل الثالث: أحوال النبي ﷺ مع زوجاته في رمضان.

الفصل الرابع: أحوال النبي ﷺ مع أمته في رمضان.

راجياً ربي أن يجعلها نبراساً للعاملين، وشفاءً للسائلين.

وقد رأيت في بعض المواضع أن أحثَّ على ما أراه معيناً على التأسي، أو أنبه على شيء مما أظنه عائقاً عن الاقتداء؛ وأرخيت للقلم العنان في بعضها.

وقد سعيت في هذا الكتاب أن لا أورد إلا حديثاً مقبولاً، مبيناً حاله من حيث الصحة والحسن، مستفيداً ذلك من أهل الصنعة الحديثية في هذا

العصر، كالعلامة الألباني والشيخ شعيب الأرناؤوط وغيرهما، وإن لم أَعْزُ ذلك في كل موضع؛ رغبة في الإيجاز، وحتى لا يطول الكتاب ويثقل بحواشيه جداً.

شاكراً كل من تفضل عليَّ فأمدَّني بعون أو مساندة، سائلاً مولاي - تعالى - العون والرشاد، والتوفيق والسداد، وأن يتفضل عليَّ فيرزقني البركة والقبول في سائر عملي بعامة، وفي هذا الكتاب بخاصة، إنه جواد منان كريم.

وصلى الله وسلم على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المؤلف

الرياض ٢٠/٦/١٤٢٨هـ

الفصل الأول:

أحوال النبي ﷺ قبل قدوم رمضان



أحوال النبي ﷺ قبل قدوم رمضان

كان النبي ﷺ تام الزهد في الدنيا، عظيم الطمع فيما عند الله - تعالى - والدار الآخرة، ولذا اشتد فرحه ﷺ وسروره بإقبال الطاعات وموسم كثرة الجود وتوالي نزول الرحمات، امتثالاً لأمر مولاه عز وجل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، والتي تدل على أن الفرح بما أنزله الله - تعالى - من القرآن، وما دعا إليه من فرائض الإسلام ومتمماته - وفي صدرها الصيام - هو خير من فرح العباد بما يجمعون من حطام الدنيا وأموالها وكنوزها(١).

يقول العلامة السعدي: « فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين لا نسبة بينها وبين جميع ما في الدنيا مما هو مضمحل زائل عن قريب، وإنما أمر الله - تعالى - بالفرح بفضله ورحمته؛ لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها وشكرها لله تعالى، وقوتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما، وهذا فرح محمود.

بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل، فإن هذا مذموم، كما قال - تعالى - عن قوم قارون عندما قالوا له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وكما قال - تعالى - في الذين فرحوا

---

(١) انظر: جامع البيان، للطبري:٦/ ٥٦٨.

بما عندهم من الباطل المناقض لما جاءت به الرسل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]»[١].

وأزمنة القربات ومواسم الخيرات تسرع بالإنسان في سيره إلى ربه عز وجل، وتعجل في رفعته وقربه من رضى خالقه سبحانه، وتنقله مراحل إلى الأمام.. إذا هو أحسن استثمارها وشمَّر عن ساعد الجد في اغتنامها في طاعة ربه تعالى.

وخير دليل على ذلك قيامه ﷺ بالاستعداد للأمر، وتهيئته النفس لاستقبال رمضان؛ لتكون مقبلةً على الخير، نشيطة في الطاعات، فتغتنم الفرصة كاملة، وتهتبل الموسم كله.

هكذا كان هدي سيد الورى ﷺ قبل رمضان؛ إذ قام ﷺ بالعديد من الأمور التي تعين على التهيؤ له، والتي يمكن القول بأن من أبرزها:

❖ إكثاره ﷺ من الصيام في شعبان:

توطئة للنفس على صيام رمضان[٢]، يدل لذلك حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ٣٦٧.

(٢) اختلف أهل العلم في الحكمة من إكثاره ﷺ من صيام شعبان، فقيل ما ذكر أعلاه، وقيل: لأنه ﷺ كان يشتغل عن صيام ثلاثة أيام من كل شهر فيقضيها فيه، وقيل: لأن نساءه كن يقضين ما عليهن من رمضان في شعبان، فيصوم معهن، قال ابن حجر في الفتح: ٤/ ٢٥٣: «والأولى في ذلك ما جاء عن أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله، لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان؟ قال: ذلك شهر يغفل الناس عنه، بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين؛ فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم»، والحديث أخرجه النسائي (٢٣٥٧)، وهو حديث حسن، والأمر كما ترى محتمل لذلك ولغيره، والله أعلم.

حتى نقول: لا يصوم، فما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر إلا رمضان، وما رأيته أكثر صياماً منه في شعبان»[١]، وفي رواية: «... ولم أرَه صائماً من شهر قط أكثر من صيامه من شعبان، كان يصوم شعبان كله، كان يصوم شعبان إلا قليلاً»[٢].

فينبغي الإكثار من الصيام في شهر شعبان لهذا الحديث، «قال أهل العلم: وصوم شعبان مثل السنن الرواتب بالنسبة للصلوات المكتوبة، ويكون كأنه تقدمة لشهر رمضان، أي: كأنه راتبة لشهر رمضان، ولذلك سن الصيام في شهر شعبان، وسن الصيام ستة أيام من شوال، كالراتبة قبل المكتوبة وبعدها»[٣].

والمتأمل في وقتنا في حال أكثر الناس يرى أن هذا الهدي النبوي قد هُجِر إلا قليلاً.

فأين المشمرون لسلوك طريق المعالي، والذي يوطئون أنفسهم ويعدونها لتحقيق غاية الربح في هذا الموسم المبارك؟!

وأين الباحثون عن بلوغ الكمال في التأسي بالنبي ﷺ والسير على هداه؟! نسأل الله - تعالى - عونه وتوفيقه.

---

(١) البخاري (١٩٦٩).

(٢) مسلم (١١٥٦).

(٣)مجموع فتاوى ابن عثيمين: ٢٠/ ٢٢ - ٢٣.

❖ تبشيره ﷺ أصحابه بقدومه:

حيث هيَّأ أصحابه - رضي الله عنهم - للاجتهاد فيه؛ بذكر خصائصه وتضاعيف الأجور فيه، والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة، منها:

قوله ﷺ: «إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين»(١).

وقوله ﷺ: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن، وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب، وينادي منادٍ: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر! ولله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة»(٢).

وقوله ﷺ: «أتاكم رمضان؛ شهر مبارك، فرض الله - عز وجل - عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب السماء، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتُغَلُّ فيه مردة الشياطين، لله فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم»(٣).

وقوله ﷺ: «إن في الجنة باباً يقال له: الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد»(٤).

فاللائق بدعاة الحق وحراس الفضيلة أن يعنوا بإذاعة هذه السنة العظيمة، وأن يبشروا الناس برمضان ويعرفوهم بفضله وبركاته، ويدلوهم على حسن

---

(١) البخاري (١٨٩٩).

(٢) الترمذي (٦٨٢)، وهو حديث صحيح.

(٣) النسائي (٢١٠٦)، وهو حديث صحيح.

(٤) البخاري (١٧٩٧).

استثمار أوقاته وتحصيل حسناته؛ ليعم البشر والسعادة، ويذيع الفرح والأنس بقدوم هذه الطاعة، وتكون النفوس أكثر ما تكون تهيؤاً لها، واشتغالاً بالبحث عن الكيفيات المثلى لاستثمارها والجَنْيِ من حسناتها، بدلاً من الانغماس في توفير الملذات والعناية بالمطعومات بصورة كادت أن تنزلها في موقع الغايات، فضعفت بذلك مقاصد الصيام، وفات أكثرها على كثير من الناس. نسأل ربنا الرحمن الهداية والسداد.

❖ **بيانه ﷺ بعض أحكام الصيام:**

وهذا أمر أظهر من أن يُستشهد له، إذ ما ورد في هذا الكتاب كله شاهد له.

والمأمول في وقتنا من علمائنا الأجلاء ودعاتنا الكرام، أن يعنوا بتبصير الناس بالأحكام الشرعية المتعلقة بهذا الشهر الكريم قبل قدومه وفي أثنائه؛ كل بحسب جهده وطاقته وبالوسيلة التي يمكنه تحقيقها؛ إذ الجهل قد فشا والتبصر بالدين قد ضعف في أوساط عامة المسلمين، بل وخاصتهم.

والمأمول من عامة المسلمين - ذكوراً وإناثاً - أن يعنوا بالتفقه بالأحكام الشرعية المتعلقة بالعبادات والأعمال التي سيقدمون عليها في هذا الموسم المبارك، فيقرؤوا الكتب، ويستمعوا الأشرطة، ويحضروا مجالس العلم وحلقه؛ إذ هو أساس العمل وسابق عليه، ومن عمل عملاً ليس عليه أمر رسول الله ﷺ فهو مردود عليه.

والمسدد من عَظُم تأسيه بالنبي ﷺ وجدّ في اقتفاء نهجه، والسير على أثره ﷺ علماً وعملاً ودعوة.

❖ عدم دخوله ﷺ في صيام رمضان إلا برؤية شاهد أو إتمام عدة شعبان ثلاثين:

وهذه خاصية من خصائص الدين تضمن صلاحيته لكل زمان ومكان؛ لاعتماده على الأسباب المشاهدة والوسائل الظاهرة لعموم الناس.

ومن الأحاديث الدالة على اعتماد الرؤية:

ما جاء عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «تراءى الناس الهلال؛ فأخبرت رسول الله ﷺ أني رأيته، فصامه وأمر الناس بصيامه»(١).

وحديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: إني رأيت الهلال - يعني رمضان - ، فقال: أتشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: يا بلال أذّن في الناس فليصوموا غداً» (٢).

ويبرز هذا الحكم مزية جليلة من مزايا هذا الدين التي يحتاجها من يقوم على شأن الناس - وفي صدرهم الدعاة والمصلحون - ، وهي أن الأصل الثقة بعامة الناس وقبول قولهم؛ ما لم يظهر منهم ما يقدح في العدالة، أو يوحي بنقصان عقلٍ أو مراعاة مصلحة شخصية، إذ قبل النبي ﷺ قول أعرابي من آحاد الناس في أمر من أعظم الأمور وأجلّها، وركن سامق من أركان هذا الدين، وهو ما يحتاج أن يستوعبه كل من يأخذ الناس بالظِنَّة وينهج نهج

---

(١) أبو داود (٢٣٤٢)، وهو حديث صحيح.

(٢) أبو داود (٢٣٤٠)، وهو من رواية سماك عن عكرمة، وفيها اضطراب، لكن قد يشهد له حديث ابن عمر المتقدم فيتقوى به.

التشدد في هذا الجانب فينظر في حاله، ويقوم اعوجاجه، ليسهل عليه إعادتها إلى سواء السبيل.

ومن الأحاديث الدالة على إتمام شعبان إذا تعذرت الرؤية: قوله ﷺ - آمراً باعتماد الرؤية لا الحساب لدخول الشهر وانصرامه -: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، وانسكوا لها[١]؛ فإن غمَّ عليكم فأكملوا ثلاثين، فإن شهد شاهدان فصوموا وأفطروا»[٢]، وقوله ﷺ:«الشهر تسع وعشرون ليلة، فلا تصوموا حتى تروه، فإن غمَّ عليكم فأكملوا العدة ثلاثين» [٣].

ولا حاجة للاحتياط بعد تحديد الشرع، ولذا قال ﷺ ناهياً عن الاحتياط لرمضان بصيام يوم الشك: «لا تصوموا قبل رمضان؛ صوموا للرؤية وأفطروا للرؤية، فإن حالت دونه غياية[٤] فأكملوا ثلاثين»[٥]، وقوله ﷺ: «لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين، إلا رجل كان يصوم صوماً فليصمه»[٦].

وما يفعله بعض الناس من صيام يوم الشك تحوُّطاً أمر منهي عنه[٧]؛ لأن النصوص قيدت بدء الصوم برؤية الهلال أو إتمام شعبان ثلاثين، ولذا كان

---

(١) معنى (انسكوا لها): أي: اعتادوا تحيُّن ليلة دخول الشهر أو انصرامه وداوموا على ترقبها؛ لأن أصل المنسك في لغة العرب: الموضع المعتاد، يقال: نسك إلى طريقة جميلة أي: داوم عليها، وانظر: تاج العروس للزبيدي:٦٨٠٢، مادة: نسك.

(٢) النسائي (٢١١٦)، وهو حديث صحيح.

(٣) البخاري (١٨٠٨).

(٤) الغياية: السحابة.

(٥) النسائي (٢١٣٠)، وهو حديث صحيح.

(٦) مسلم (١٠٨٢).

(٧) اختلف الناس في حكم صوم يوم الشك، فذهب الجمهور إلى النهي عنه، على اختلاف بينهم هل ذلك النهي على التحريم أو التنزيه؟ وذهب بعض الحنابلة إلى وجوب صومه، وذهب آخرون إلى جواز صومه=

عمار بن ياسر - رضي الله عنهما - يقول: «من صام اليوم الذي يشك به الناس فقد عصى أبا القاسم ﷺ»[١].

لكن من لم يستطع تحري الهلال أو انتظار خبر من يتحراه فصامه بنية معلقة؛ بأن ينوي إن كان من شهر رمضان كان عن رمضان، وإلا فلا، فإن ذلك يجزيه على الراجح؛ لأن «النية تتبع العلم، فإن علم أن غداً من رمضان فلابد من التعيين في هذه الصورة، فإن نوى نفلاً أو صوماً مطلقاً لم يجزه؛ لأن الله أمره أن يقصد أداء الواجب عليه، وهو شهر رمضان الذي علم وجوبه، فإذا لم يفعل الواجب لم تبرأ ذمته.

وأما إذا كان لا يعلم أن غداً من شهر رمضان فهنا لا يجب عليه التعيين. ومن أوجب التعيين مع عدم العلم فقد أوجب الجمع بين الضدين»[٢]، والله أعلم.

ولو رجعت الأمة في وقتنا إلى هذا الهدي البين في تعليق ثبوت دخول الشهر وانصرامه بالرؤية أو إتمام الشهر ثلاثين لما استفحلت الفرقة الناجمة عن الخلاف في اعتماد حساب المراصد الفلكية أو عدم اعتماده؛ لأن الشرع مبناه على اتباع النص الثابت والخضوع له، والنص قد علق الأمر بالرؤية لا الحساب، فمتى وجدت رؤية ولو عن طريق المراصد وجب العمل بمقتضاها؛ لدخولها في عموم قوله ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»، ومتى لم توجد رؤية وجب إتمام الشهر ثلاثين؛ لمنطوق النص.

=احتياطاً، وهذا مذهب أبي حنيفة والمنصوص الصريح عن أحمد وهو مذهب كثير من الصحابة والتابعين أو أكثرهم، كما يقول ابن تيمية، انظر: مجموع فتاويه: ٢٥/٩٨ - ١٠٠.

(١) الترمذي (٦٨٦)، وهو حديث صحيح.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ٢٥/١٠١.

على أن استعمال المكبرات البصرية غير ممنوع، وهو أيضاً ليس بلازم؛ لأن الظاهر من السنة الاعتماد على الرؤية المعتادة لا غيرها[١]، وهو ما يوجب على الأمة العناية بترائي الهلال، والله أعلم.

أما قوله ﷺ: «الصوم يوم تصومون، والفطر يوم تفطرون، والأضحى يوم تضحون»[٢]، فمعناه أن الصوم والفطر مع الجماعة وسواد الناس، وأن هذه الأمور - على الراجح - ليس للآحاد فيها دخل، وليس لهم التفرد فيها، بل الأمر فيها إلى الإمام والجماعة، ويجب على الآحاد اتباعهم في ذلك[٣].

ولو أن دعاتنا نهجوا هذا النهج والتزموا هذا الهدي لعالجوا كثيراً من حالات الفرقة العملية، ولخففوا قدراً من العداوة والبغضاء بين الأقليات المسلمة في دول الغرب والشرق، ولعل من أقرب المخارج: قيام مركز معتبر، أو رابطة لها وزنها بترائي الهلال فمتى رُئي الهلال على وجه شرعي كان الصيام والإفطار، وإن تراءوه فلم يرَ على وجه شرعي أتموا عدة الشهر الثلاثين: صياماً وإفطاراً[٤]، فإن لم يتمكنوا من تحقيق الرؤية في البلد الذي هم

---

(١) انظر: تقريراً نفيساً في المسألة لابن عثيمين في مجموع فتاويه: ١٩/ ٣٦ - ٣٧.

(٢) الترمذي (٦٩٧)، وهو حديث صحيح.

(٣) اختلف الناس على ثلاثة أقوال في مسألة: لو رأى هلال الصوم وحده، أو هلال الفطر وحده فلم يؤخذ بقوله، فقالت طائفة: يصوم ويفطر سراً برؤية نفسه، وقال قوم: يصوم ولا يفطر إلا مع الناس، وقال آخرون: لا يصوم ولا يفطر إلا مع الناس، وهذا هو المختار؛ للحديث أعلاه، والله أعلم، انظر كلاماً نفيساً في المسألة في مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ٢٥/ ٢١٤ - ٢١٨.

(٤) وهذا بناء على المختار من الأقوال من أن مطالع الهلال تختلف من إقليم إلى آخر، وأن لكل أهل إقليم رؤيتهم الخاصة التي تختلف عن الأقاليم الأخرى، فمن رآه في بلد لزمه العمل بموجب تلك الرؤية صياماً أو إفطاراً وسائر أهل الإقليم، ومن لم يره لم يلزمه ذلك؛ لقوله - عز وجل -: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾[البقرة: ١٨٥]،=

فيه اعتبروا رؤية أقرب بلدة إسلامية إليهم في إقليمهم، فساروا على صيامها؛ لأن هذا غاية ما يمكنهم، ولا يكلف الله تعالى نفساً إلا وسعها.

وفي مسألة الرؤية خلاف قديم بين العلماء، ولا يزال يتجدد، ولكن أنبه هنا إلى الأمور:

الأول: أن الواجب على الجميع أن يتقوا الله في عبادتهم وعبادة الناس، وأن يكون أخذهم بأحد الأقوال راجعاً إلى ما يظهر من النصوص الشرعية؛ لا عصبية لمذهب أو بلد أو حزب أو قائل.

الثاني: أن يدرك الجميع أن هذه المسألة من المسائل التي يسوغ فيها الاجتهاد، وأن باب الخلاف فيها واسع، وأنه لا يجوز بحال أن يكون بقاء الخلاف فيها سبباً للعداوة والبغضاء، ولا مزيلاً للمودة وباعثاً على التفرق، وليعلم الجميع أن من أعظم ما يجنى من اتباع النص هو اجتماع الأمة.

الثالث: هَبْ أن أكبر رابطة للمسلمين أو أكبر مركز إسلامي للجالية في بلد ما؛ أخذ بقول ضعيف في مسألة دخول الشهر، فإنه يحسن بالأقلية تجنب

=وقوله ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»، فعلق الشارع الصيام بشهود الشهر ورؤية الهلال، ومطالع الأهلة تختلف باتفاق أهل المعرفة بذلك.

والمقصود بالإقليم هنا: الإقليم الجغرافي الذي تتوافق فيه المطالع؛ لا الإقليم السياسي الذي قد تختلف المطالع في بعضه، كما قد تتفق المطالع في أكثر من إقليم سياسي.

على أن هناك قولاً آخر قوي الاعتبار، وهو أنه إذا ثبتت رؤية الهلال في مكان ما، على وجه شرعي، فإنه يلزم جميع المسلمين الصوم والفطر، لقوله ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»، والخطاب عام للمسلمين، فيشمل جميعهم. انظر: مجموع فتاوى ابن عثيمين: ١٩/ ٤٤ - ٤٧.

إظهار اختيارها ما دام يثير الخلاف، ولتترك التشغيب على من له السلطة المعنوية أو الأكثرية في اختيارها.

ومما يؤسف له أن نرى هذه العبادة العظيمة عرضة لتعصب فئات أو أشخاص لاختيار البلد أو البلدان التي ينتمون إليها، وحرصها على أن تكون لها الكلمة المسموعة في أوساط عامة المسلمين في ذلك البلد الذي يقيمون فيه، ثم تقوم بإلباس قولها لباساً شرعياً، دون مراعاةِ مصلحةٍ أو عملٍ بدليل!

نسأل الله – تعالى – أن يرزقنا الفقه في الدين، وتمام المتابعة لإمام المرسلين ﷺ، والحرص على وحدة المسلمين واجتماع كلمتهم على هدى مستقيم.

هكذا كان تهيؤ المعلم الرحيم ﷺ لهذا الموسم العظيم واستعداده له قبل نزوله.

فأين أنت من ذلك يا من ترجو ما عند الله – تعالى – والدار الآخرة؟! فإنه ضيف غنيمةٍ لهذه الأمة؛ ينزل عليهم فيذكِّر غافلهم، ويعين ذاكرهم، وينشِّط عالمهم، ويشحذ هممهم للطاعات، ويبعدهم عن الذنوب والسيئات، ويصرفهم عن مواضع الشهوات والملهيات، فتمتلئ مساجدهم، وتجود نفوسهم، ويكثر تعبدهم، وينتصر مجاهدهم، ويخنس شيطانهم.. فما أحقه – يا موفق – بأن تعدّ العدة لاستقباله، وتجعل من نفسك نفساً قادرة على اغتنام أوقاته، والاستفادة من لحظاته من خلال:

المبادرة إلى توبة عامة نصوح من جميع الذنوب، تزكو بها النفس وتتطهر من الآثام.

والعناية بالتفقه في المقاصد والأحكام.

والقيام بتخطيطٍ جيد لاغتنامه؛ بحيث تُرَتَّب الأولويات، وتُنَسَّق الأوقات، ويختار الرفيق المعين على الخير!

اللهم وفقنا للخير، وأعنّا على طاعتك ومفارقة ما يغضبك، يا أكرم الأكرمين.

الفصل الثاني:

أحوال النبي ﷺ مع ربه في رمضان



أحوال النبي ﷺ مع ربه في رمضان

كان نبي الهدى - عليه الصلاة والسلام - أعرف الخلق بربه سبحانه، وأعظمهم قياماً بحقه..، تدرج في سلم العبودية لله - تعالى - وتحقيق الكمال البشري حتى بلغ أكمل المنازل وأعلى المقامات، وارتقى مرتقى لا يبلغه سائر العالمين؛ فغفر الله - عز وجل - له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

ثم هو ﷺ - وهو بتلك المنزلة السامقة - يقوم من الليل حتى تنتفخ قدماه وتتفطر! فتعجب الصديقة بنت الصديق عائشة - رضي الله تعالى عنها - من ذلك فتفاتحه، فيجيبها ﷺ قائلاً: «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً؟!»[1].

كان له ﷺ بكاء الوجلين ودعاء المكروبين، قال عبد الله بن الشخير - رضي الله عنه - : «رأيت رسول الله ﷺ يصلي، وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء ﷺ»[2].

وحدَّثت زوجه أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - بأعجب شيء رأته من رسول الله ﷺ فقالت: «لما كان ليلة من الليالي قال: يا عائشة ذريني أتعبد لربي، قالت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما سرَّك، قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بلَّ حجره، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلَّ لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلَّ الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة؛ فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله، لِمَ تبكي وقد غفر الله

---

(١) البخاري (٤٨٣٧).

(٢) أبو داود (٩٠٤)، وهو حديث صحيح.

لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: أفلا أكون عبداً شكوراً، لقد نزلت عليّ الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآية كلها»[1].

أرأيت أيها الموفق! إنه كمال القيام بأمر الله - عز وجل - من رجل كان سيد ولد آدم ولا فخر، وهو ﷺ يعلم علم اليقين بإخبار الله - تعالى - له بأنه في عليين، ومع هذا كان يجتهد ذلك الاجتهاد، ويخبت ذلك الإخبات، ويتذلل ذلك التذلل، ويجمع من المحبة والخوف والرجاء ما يجمع!!

فما بالنا في وقتٍ صار فيه الواحد منا متساهلاً في الطاعة، مقارفاً لكثير من المعصية، قليلاً انكساره، ضعيفاً حرصه وانقياده لخالقه عز وجل، بل إنك لتراه تكاد الغفلة أن تطبق عليه، ثم تجده عقب كل ذلك آمناً من مكر الله عز وجل، بل يكاد أن يكون جازماً بالنجاة، غير وجِلٍ ولا خائف!

إن ما بين مَنْ هذه حاله وبين اتباعه ﷺ والتأسي به كما بين الثرى والثريا.

فاللهم لطفاً لطفاً، عفواً عفواً، يا منان يا كريم.

وقد كانت أحواله ﷺ مع ربه - عز وجل - في رمضان أنموذجاً حياً يصور عبادته وأحوال خضوعه لبارئه تعالى، فينطق موضحاً جوانب عدة من تعبّده ﷺ، **لعل أبرزها:**

---

(١) ابن حبان (٦٢٠)، وإسناده على شرط مسلم.

❖ صيامه ﷺ شهر رمضان:

وهذا بيِّن، والمراد من إيراده - مع بداهته - التذكير بشيء من صفات صيامه ﷺ، وبيان حاله وهو في أكمل ما يكون عبودية لمولاه ودينونة لأمره عز وجل، ولعل من أبرز ما يتعلق بذلك:

١- حرصه ﷺ على تناول الإفطار والسحور.

٢- تعجيله ﷺ للإفطار؛ حيث كان يفطر قبل أن يصلي المغرب، وكذا تأخيره للسحور، حيث كان ﷺ يتناوله قبل أذان الفجر الثاني بقليل.

٣- إفطاره ﷺ على رطب أو تمر أو ماء، وترغيبه في سحور التمر.

٤- تواضع إفطاره وسحوره ﷺ.

والنصوص الدالة على هذه الأمور عديدة، منها:

حديث أنس - رضي الله عنه - قال: «كان النبي ﷺ يفطر قبل أن يصلي على رطبات، فإن لم تكن رطبات فتميرات، فإن لم تكن تميرات حسا حسوات من ماء»[1].

وحديث أبي عطية قال: «دخلت أنا ومسروق على عائشة رضي الله عنها، فقال لها مسروق: رجلان من أصحاب محمد ﷺ، كلاهما لا يألو عن الخير؛ أحدهما يعجل المغرب والإفطار، والآخر يؤخر المغرب والإفطار؟ فقالت: من يعجل المغرب والإفطار؟ قال: عبد الله، فقالت: هكذا كان رسول الله ﷺ يصنع»[2].

---

(١) الترمذي (٦٩٦)، وهو حديث صحيح، وفي حال لم يجد الصائم شيئاً من ذلك أفطر بأي طعام حلال، فإن لم يجد نوى الإفطار، ومن نوى الإفطار فقد أفطر، والله أعلم.

(٢) مسلم (١٠٩٩).

وحديث عبد الله بن أبي أوفى - رضي الله عنه - قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر في شهر رمضان، فلما غابت الشمس قال: يا فلان انزل فاجدح[١] لنا! قال: يا رسول الله إن عليك نهاراً! قال: انزل فاجدح لنا! قال: فنزل فجدح، فأتاه به فشرب النبي ﷺ ثم قال بيده: إذا غابت الشمس من ها هنا وجاء الليل من ها هنا فقد أفطر الصائم»[٢].

وحديث عبد الله بن الحارث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال:«دخلت على النبي ﷺ وهو يتسحر، فقال: إنها بركة أعطاكم الله إياها فلا تدعوه»[٣].

وحديث زيد بن ثابت - رضي الله عنه - قال: «تسحرنا مع النبي ﷺ ثم قام إلى الصلاة، قلت: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية»[٤]، وتأخير السحور أعون على الصوم، وأرفق بالصائم، وأسلم من النوم عن صلاة الفجر.

وحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: « نعم سحور المؤمن التمر»[٥].

وحديث أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ - وذلك عند السحور -: «يا أنس إني أريد الصيام، أطعمني شيئاً، فأتيته بتمر وإناء فيه ماء،

---

(١) الجدح: تحريك السويق ونحوه بالماء بعود يقال له: المجدح مجنح الرأس، قاله ابن حجر في الفتح: ٤/ ٢٣٢.

(٢) البخاري (١٩٤١)، مسلم (١١٠١) واللفظ له.

(٣) النسائي (٢١٦٢)، وهو حديث صحيح.

(٤) البخاري (١٩٢١).

(٥) أبو داود (٢٣٤٥)، وهو حديث صحيح.

وذلك بعدما أذن بلال»[١].

والملحوظ من حاله ﷺ حرصه على تعجيل الإفطار، وتناول السحور ولو بأقلِّ القليل، يدل لذلك حديث أنس - رضي الله عنه - قال: «ما رأيت رسول الله ﷺ قط صلى المغرب حتى يفطر، ولو على شربة ماء»[٢]، وحديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «تسحروا ولو بجرعة من ماء»[٣].

لقد تطلعت نفسه ﷺ وتوحّدت لتحقيق العبودية، والتقرب للباري بأجَلِّ الأعمال بما تهيأ له من الأسباب.

وعندما ندقق في أحواله ﷺ هذه ندرك القصور الذي يقع فيه بعض الصائمين من ترك السحور أو تقديمه جداً، كأن يتسحر في منتصف الليل، لما فيه من ترك الإرفاق بالنفس، وعدم تماشيه مع الهدي الثابت عنه ﷺ، ولا مع سيرة أصحابه الكرام من بعده، والتي حكاها عمرو بن ميمون، فقال: «كان أصحاب محمد ﷺ أسرع الناس إفطاراً، وأبطأه سحوراً»[٤].

وندرك أن التكلف الذي نشهده اليوم في موائد إفطار بعض الناس وسحورهم هو أبعد شيء عن هديه ﷺ؛ ذلك أنه يوسّع حظ النفس بما يلهي من الملذات فتثقل عن الطاعة، وتفتر عن العبادة في هذا السوق العامر، وفي هذا الموسم المبارك.

---

(١) النسائي (٢١٦٧)، وهو حديث صحيح.

(٢) ابن حبان (٣٥٠٤)، وإسناده على شرط الشيخين.

(٣) ابن حبان (٣٤٧٦)، وهو حديث حسن.

(٤) عبد الرزاق (٧٥٩١).

وللأسف فإن الأشد من التكلف في موائد الإفطار والسحور تناول المال الحرام، وأن يستهلَّ المرء إفطاره أو يختم سحوره بشيء حرام، نسأل الله - تعالى - السلامة والعافية.

فلماذا يغبن المرء نفسه فيوبقها أو يحرمها من أجور قد تكون سبباً في نجاته أو رفع درجاته، في يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ويؤثر عليها شيئاً من خيرات الدنيا العاجلة، والتي قد تجمع عليه - غير الحيلولة بينه وبين بذل الوسع في الإقبال على الله عز وجل في هذه الأيام والليالي الجليلة، وغير الذنوب والآثام - أمراضاً جسدية، وأضراراً صحية يندم عليها في تالي أيامه وما بقي من عمره!

فحريٌّ بالكيس الحازم أن يسوس نفسه فيَحُدَّ من سكرتها، ويضبط أمرها، ولا يتيح لها التمادي في الشهوات والتذرع بالواهي من الحجج.. فإن الأيام تسير، والفرص تزول، والأعمار تتناقص، والمسدَّد من تأسى بنبيه ﷺ فيما عرف من أحواله، فحرص على التقلل من الملذات؛ ابتعاداً عن الغفلة، واستثماراً للموسم في التزود بالطاعات والاستكثار من الخيرات.

٥- دعاؤه ﷺ عند الإفطار:

يدل لذلك:

حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أفطر قال: ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله»[1].

---

(١) أبو داود (٢٣٧٥)، وهو حديث حسن.

وفي وقتنا: أنسى التشاغل بالطعام وقت الإفطار كثيراً من الصائمين عن التضرع والدعاء، وبخاصة ربات الخدور، وحال ذلك بينهم وبين استثمار هذه اللحظات المباركات التي يرجى أن تستجاب فيها الدعوات الخالصات، وأَوْلى بهم ثم أَوْلى بهم أن يستثمروها.

٦- سواكه ﷺ حال الصيام:

لما رُوِيَ عن عامر بن ربيعة - رضي الله عنه - قال: «رأيت النبي ﷺ ما لا أحصي يتسوك، وهو صائم»[١].

وكيف لا يكون ذلك حاله ﷺ مع السواك وهو القائل في فضله والحث عليه: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»[٢]، والقائل ﷺ: «لقد أمرت بالسواك حتى ظننت أنه سينزل به علي قرآن أو وحي»[٣].

والظاهر أن استياكه ﷺ كان طوال اليوم، وأنه لم يكن يفرق بين أول النهار وآخره؛ لقوله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء»[٤]، وقوله ﷺ: «لولا أن أشق على المؤمنين لأمرتهم بالسواك عند

---

(١) الترمذي (٧٢٥)، وقال: «حسن، والعمل على هذا عند أهل العلم لا يرون بالسواك للصائم بأساً؛ إلا أن بعض أهل العلم كرهوا السواك للصائم بالعود والرطب، وكرهوا له السواك آخر النهار»، وقد قال ابن القيم في زاد المعاد: ٢/ ٦١: « وصح عنه أنه كان يستاك وهو صائم»، والحديث رواه جماعة؛ وفي سنده عاصم بن عبيد الله تكلم فيه غير واحد من الأئمة، فقال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن عدي: هو مع ضعفه يكتب حديثه، وقال العجلي: لا بأس به. انظر: تهذيب التهذيب: ٥/ ٤٦.

(٢) أحمد(٧)، وهو حديث صحيح لغيره.

(٣) أحمد(٢٢/ ٣)، وهو حديث صحيح لغيره.

(٤) أحمد(٩٩٣٠)، وإسناده على شرط الشيخين.

كل صلاة»[١]، قال ابن عبد البر:«في هذا الحديث إباحة السواك في كل الأوقات؛ لقوله: مع كل وضوء، ومع كل صلاة، والصلاة قد تجب في أكثر الساعات، بالعشي والهجير والغدوات»[٢].

قال البخاري: «ولم يخص الصائم من غيره» [٣]، وقال ابن خزيمة: «ففيها دلالة على أن السواك للصائم عند كل صلاة فضيلةٌ كهو للمفطر»[٤].

فحفاظاً عليه عباد الله تعالى؛ متابعة لهدي سيد المرسلين، فإن أجره عظيم، وفوائده لا تكاد تحصى.

ولا يشكل على هذا قوله ﷺ: «لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك» [٥]؛ لأن معناه: أن منزلة هذه الرائحة المستقذرة عندكم أطيب عند الله - تعالى - وأقرب إليه وأزكى عنده من رائحة المسك المستطابة لديكم؛ لكونها ناشئة عن امتثال أمرٍ وفعل قربة، لا أنها مستطابة في ذاتها، ولا أن للعبد أن يعنى باجتلابها ويحرص على عدم إزالتها، والله أعلم.

---

(١) مسلم (٢٥٢).

(٢) التمهيد، لابن عبد البر: ٧/ ١٩٨.

(٣) البخاري في صحيحه - فتح - : ٤/ ١٨٧.

(٤) ابن خزيمة: ٣/ ٢٤٧.

(٥) البخاري (١٨٠٥)، ومن أجل هذا الحديث كره جماعة السواك للصائم آخر النهار من أجل الخلوف؛ لأن أكثر ما يعتري الصائم الخلوف في آخر النهار؛ لتأخر الأكل والشرب عنه، وقد اختلف العلماء في السواك للصائم، فقيل: لا بأس به للصائم مطلقاً، وقيل: بكراهيته بعد الزوال واستحبابه قبله، وقيل: بكراهيته بعد العصر فقط، وقيل: بالتفريق بين الفرض والنفل، فيكره في الفرض بعد الزوال ولا يكره في النفل؛ لأنه أبعد عن الرياء، والظاهر الأول لما تقرر أعلاه والله أعلم، انظر: التمهيد، لابن عبد البر:١٩/ ٥٧، وعمدة القاري، للعيني:١٦/ ٣٨٤.

ولم يأتِ نص صحيح في تفريقه ﷺ بين يابس السواك ورطبه، ولذا فقد كان كثير من السلف لا يرون فرقاً بين يابسه ورطبه، قال ابن سيرين لرجل أتاه فقال: «لا بأس به، قال: إنه جريدة وله طعم، قال: الماء له طعم وأنت تمضمض»[(١)]، وقال ابن عُلية: «السواك سنة للصائم والمفطر، والرطب فيه واليابس سواء»[(٢)].

٧- إدراكه ﷺ الفجر جنباً وهو صائم:

يدل لذلك:

حديث زوجه عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان النبي ﷺ يدركه الفجر في رمضان وهو جنب من غير حلم، فيغتسل ويصوم»[(٣)]، وحديث زوجه أم سلمة - رضي الله عنها - «أن رسول الله ﷺ كان يدركه الفجر وهو جنب من أهله ثم يغتسل ويصوم»[(٤)].

ويلتحق بالجنب الحائض والنفساء، فلهما أن تنويا الصيام من الليل إذا رأتا الطهر قبل الفجر، وإن لم تغتسلا قبل طلوعه.

٨- صبُّه ﷺ الماء على رأسه عند اشتداد الحر وهو صائم:

يدل لذلك:

حديث أبي بكر بن عبد الرحمن قال: «عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ بالعَرْج يصب على رأسه الماء وهو صائم من

---

(١) ابن أبي شيبة: (٩١٧١).

(٢) التمهيد، لابن عبد البر: ٧/ ١٩٩.

(٣) البخاري (١٨٢٩)، ومسلم (١١٠٩) واللفظ له.

(٤) البخاري (١٩٢٦).

العطش - أو من الحر -»[١].

وهذا من الرفق بالجسد، والتيسير على النفس، وبث النشاط فيها؛ لتتمكن من مزيد طاعة، إذ مقصود الصيام الأعظم امتثال الأمر وتقديم الخضوع له - تعالى - على محبوبات النفس وملذاتها، لا تعذيب الجسد وإيذائه والقسوة عليه.

ويلحق بصب الماء على الرأس عموم الاغتسال، وبلّ الثوب، والانتقاع في الماء، كما أورد ذلك البخاري في صحيحه، في باب: اغتسال الصائم عن بعض الصحابة والتابعين - الذين كانوا آية في الحرص على التأسي بالنبي ﷺ - ، فقال: «وَبلَّ ابن عمر - رضي الله عنهما - ثوباً فألقاه عليه وهو صائم، ودخل الشعبي الحمام وهو صائم،.. وقال الحسن: لا بأس بالمضمضة والتبرد للصائم، وقال ابن مسعود: إذا كان صوم أحدكم فليصبح دهيناً مترجلاً، وقال أنس: إن لي أَبْزَن أتقحم فيه[٢] وأنا صائم»[٣].

ويلتحق بذلك في أيامنا البقاء حول أجهزة التبريد.

وبصورة عامة فكل ما يخفف العبادة على الشخص، ويمكّنه من أدائها وهو نشيط مطمئن مقبل على ربه - عز وجل - أمر مطلوب، وكل مشقة يمكن الانفكاك عنها مع أداء العبادة على وجهها فليست من مقصودات الشارع، بل التخلي عنها من مطلوباته، أما المشقة التي لا تنفك عنها العبادة فهي التي

---

(١) أبو داود (٢٣٦٥)، وهو حديث صحيح.

(٢) الأبزن:حجر منقور شبه الحوض، وهي كلمة فارسية، وأتقحم فيه، أي: أدخل.

(٣) البخاري:٢/ ٦٨٠ - ٦٨١.

تزيد في الأجر، كالوضوء في الشتاء والسفر للحج، والمشي إلى صلاة الجماعة في شدة الحر أو البرد.

وفي ذلك يقول ابن تيمية: «ومما ينبغي أن يعرف أن الله ليس رضاه أو محبته في مجرد عذاب النفس وحملها على المشاق، حتى يكون العمل كلما كان أشق كان أفضل، كما يحسب كثير من الجهال أن الأجر على قدر المشقة في كل شيء، لا! ولكن الأجر على قدر منفعة العمل ومصلحته وفائدته، وعلى قدر طاعة أمر الله ورسوله، فأي العملين كان أحسن، وصاحبه أطوع وأتبع كان أفضل؛ فإن الأعمال لا تتفاضل بالكثرة، وإنما تتفاضل بما يحصل في القلوب حال العمل»[1]، والله أعلم.

فالشريعة واسعة، وأفضل الأمر أيسره، والتشديد على النفس أو الآخرين في هذا الباب خلاف الهدي الثابت عن النبي ﷺ.

٩- مضمضته واستنشاقه ﷺ وهو صائم من غير مبالغة في الاستنشاق:

كما يدل عليه:

حديث لقيط بن صبرة - رضي الله عنه - قال: «... فقلت: يا رسول الله أخبرني عن الوضوء! قال: أسبغ الوضوء، وخلّل بين الأصابع، وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً»[2].

وهذا غاية في الوسطية؛ إذ جمع ﷺ في المطالبة لأمته بين تمام النظافة والحفاظ

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ٢٥/ ٢٨١ - ٢٨٢.

(٢) أبو داود (١٤٢)، وهو حديث صحيح، وقد قال ابن القيم في زاد المعاد ٢/ ٦١: «وكان يتمضمض ويستنشق وهو صائم، ومنع الصائم من المبالغة في الاستنشاق».

على الصيام، ولم يقبل الإفراط في جانب على حساب آخر.

١٠- وصاله ﷺ الصيام أحياناً ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة[(١)]:

والأحاديث الدالة على ذلك عديدة، منها:

حديث أنس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «لا تواصلوا، قالوا: إنك تواصل؟! قال: لست كأحد منكم؛ إني أُطعَم وأُسقَى - أو إني أبيت أُطعَم وأُسقَى -»[(٢)].

وحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «نهى رسول الله ﷺ عن الوصال في الصوم، فقال له رجل من المسلمين: إنك تواصل يا رسول الله! قال: وأيكم مثلي؟ إني أبيت يطعمني ربي ويسقين. فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يوماً ثم يوماً ثم رأوا الهلال، فقال: لو تأخر لزدتكم، كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا»[(٣)].

والظاهر من الجمع بين النصوص أن الوصال لغير النبي ﷺ لا يشرع، وأن من أراد أن يواصل الصوم فله أن يواصل إلى السحر، لقوله ﷺ: «لا تواصلوا، فأيكم إذا أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر»[(٤)]، وأن هذه المواصلة إلى السحر من باب الجائز، وليست من باب المشروع؛ لحثه ﷺ على تعجيل الفطر، كما في حديث سهل بن سعد - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: زاد المعاد لابن القيم: ٢/ ٣٢.

(٢) البخاري (١٩٦١).

(٣) البخاري (١٩٦٥).

(٤) البخاري (١٨٦٢).

قال: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر»[(١)].

وقد اختلف الناس في معنى قوله ﷺ: «إني أبيت يطعمني ربي ويسقين» فقال قوم: إنه طعام وشراب حسي، قالوا: وهذه حقيقة اللفظ، ولا موجب للعدول عنها.

وقال آخرون: إنه مما يغذيه الله - تعالى - من معارفه، وما يفيض عليه من لذة مناجاته وحبه والقرب منه سبحانه، قالوا: ولو كان ذلك طعاماً وشراباً حسياً لما كان في ذلك تعجيز، ولما عُدَّ ﷺ صائماً فضلاً عن أن يكون مواصلاً[(٢)]، وهذا الأخير في غاية الظهور، فلله المنة والحمد.

وفي هذا إشارة إلى أن اشتغال العبد بالطاعة، وعيشه في كنف مولاه - سبحانه - مبعد له عن التعلق بشهوات النفس، ومقلل من احتياجات الجسد؛ لما لكثرة العبادة من أثر في تقوية العزيمة وتمتين الإرادة، والإبعاد عن ضغط الشهوات وأسر أهلها، ومن هنا كان الصوم وِجاء وجُنَّة لصاحبه، يقيه من الوهن أمام غرائزه وتسلط أعدائه عليه.

وفي وصاله ﷺ - وهو مشروع في حقه - دلالة ظاهرة على حرصه ﷺ على الاستكثار من الخير، وعنايته الفائقة بفطام نفسه عن الشهوات، وتربيتها على التقلل من تحصيل الملذوذات؛ لتقل غفلتها، وتجد وقتاً تستغرقه في طاعة ربها، وبخاصة في هذا الموسم المبارك والزمان النفيس.

وفيه أيضاً أن الله - عزَّ وجلَّ - قد يوجد الأمر المخالف للعاديَّات من

(١) البخاري (١٨٥٦)، وانظر: مجموع فتاوى ابن عثيمين: ٢٠/ ٥٩ - ٦٠.

(٢) انظر: زاد المعاد، لابن القيم: ٢/ ٣٢ - ٣٤.

غير سبب ظاهر.

أما نهيه ﷺ لأصحابه الكرام عن الوصال - مع وصاله ﷺ - فيتجلى فيه ما كان عليه ﷺ من الرحمة والرفق بأمته، وأن الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا يرجعون إلى فعله المعلوم صفته ويبادرون إلى التأسي به في ذلك، إلا فيما نهاهم ﷺ عنه[١]، والله أعلم.

١١- سفره ﷺ في رمضان، وجمعه بين الصوم والفطر فيه:

ومن الأحاديث الدالة على ذلك:

ما جاء عن طاووس عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «سافر رسول الله ﷺ في رمضان فصام حتى بلغ عُسْفان، ثم دعا بإناء من ماء، فشرب نهاراً ليريه الناس، فأفطر حتى قدم مكة، قال: وكان ابن عباس يقول: صام رسول الله ﷺ في السفر وأفطر؛ فمن شاء صام، ومن شاء أفطر»[٢].

والمتتبع لحاله ﷺ في السفر يدرك أن الأفضل للمسافر في حال خلو المشقة وانتفاء الحاجة إلى الفطر هو الصوم لفعله ﷺ، كما في حديث أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد، حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة»[٣]، ولما في ذلك من الإسراع في إبراء الذمة، وموافقة الشهر، وتحصيل السهولة الناجمة عن موافقة الناس.

---

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر: (٦/ ٢٢٩).
(٢) البخاري (٤٢٧٩).
(٣) مسلم (١١٢٢).

أما إن وجدت مشقة لا تضره أو حاجة للفطر فالأفضل الفطر؛ لقوله ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته»(١).

بل قد يكره الصيام؛ لفطره ﷺ في غزاة الفتح في رمضان، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صام رسول الله ﷺ حتى بلغ الكديد - الماء الذي بين قُديد وعُسْفان - أفطر، فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر» (٢).

ولما رواه أنس - رضي الله عنه - قال:«كنا مع النبي ﷺ أكثرنا ظلاً الذي يستظل بكسائه، وأما الذين صاموا فلم يعملوا شيئاً، وأما الذين أفطروا فبعثوا الركاب وامتهنوا وعالجوا، فقال النبي ﷺ:«ذهب المفطرون اليوم بالأجر»(٣).

أما إن شق جداً، أو وجدت ضرورة للفطر فالفطر متعين؛ لقول رسول الله ﷺ لمن صام في مثل تلك الحال:«أولئك العصاة، أولئك العصاة»(٤).

ولقوله ﷺ لما رأى رجلاً يُظلَّل عليه والزحام عليه: «ليس من البر الصيام في السفر» (٥).

وما جاء في حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال:«سافرنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة ونحن صيام، قال: فنزلنا منزلاً، فقال رسول الله ﷺ: إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم، فكانت رخصة، فمنا من صام ومنا من أفطر، ثم نزلنا منزلاً آخر، فقال: إنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى

---

(١) أحمد (٥٨٦٦)، وهو حديث صحيح.
(٢) البخاري (٤٢٧٥).
(٣) البخاري (٢٧٣٣).
(٤) مسلم (١١١٤)، وانظر كلاماً نفيساً في المسألة للعلامة ابن عثيمين في مجموع فتاويه: ١٩/ ١٣٥.
(٥) أبو داود (٢٤٠٧)، وهو حديث صحيح.

لكم فأفطروا، وكانت عزمة فأفطرنا، ثم قال: رأيتنا نصوم مع رسول الله ﷺ بعد ذلك في السفر»[١]، والله أعلم.

قال ابن القيم: «ولم يكن من هديه ﷺ تقدير المسافة التي يفطر فيها الصائم بحدٍّ، ولا صح عنه في ذلك شيء، وكان الصحابة حين ينشئون السفر يفطرون من غير اعتبار مجاوزة البيوت، ويخبرون أن ذلك سنته وهديه ﷺ»[٢].

ومهما نقل عن أئمة الفقه وأهل العلم في الأفضل من الفطر أو الصوم في السفر فيبقى أن الصوم والفطر في السفر كل ذلك من هديه ﷺ، وهذا ما ينبغي أن يراعيه المتعجلون بالإنكار على المفطرين أو الصائمين في السفر.. فلكل مأخذه وحجته، وإن كان الأظهر أن الأفضل هو الأرفق بالعبد، والأعون له على طاعة ربه - عزّ وجلّ - إمساكاً أو فطراً[٣]، والله أعلم.

١٢- عدم خروجه ﷺ من الصيام إلا برؤية محققة أو بإتمام الشهر ثلاثين:

يدل لذلك قوله ﷺ: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، وانسكوا لها؛ فإن غُمَّ عليكم فأكملوا ثلاثين؛ فإن شهد شاهدان فصوموا وأفطروا»[٤].

---

(١) مسلم (١١٢٠).

(٢) زاد المعاد: ٢/ ٥٥ - ٥٦.

(٣) انظر: نيل الأوطار، للشوكاني: ٤/ ٣٠٤، وتحفة الأحوذي، للمباركفوري:٣/ ٣٢٥.

(٤) النسائي (٢١١٦)، وهو حديث صحيح، والأصل في ثبوت دخول الشهر وانصرامه أن يكون بشهادة شاهدين؛ لهذا الحديث، وقد جاء في المسند (١٨٩١٥) بلفظ: «وإن شهد شاهدان مسلمان فصوموا وأفطروا»، لكنه لما ثبت عن النبي ﷺ أنه أمر الناس بالصيام مرة بشهادة ابن عمر - رضي الله عنهما - ومرة بشهادة أعرابي، ولم يطلب ﷺ شاهداً آخر معهما، ولذا قيل بالتفريق بين استقبال الشهر وانصرامه، والله أعلم.

ويقال في هذه المسألة ما قيل في مسألة دخول الشهر من التنبيه على أن الراجح هو الاعتماد على الرؤية دون الحساب الفلكي، عملاً بالدليل في المسألة.

لكن لا بد للمسلم من العمل على تحقيق الواجب الآخر وهو جمع الكلمة، والقيام بدوره في الحدِّ من الخلاف العملي في المسألة متى كان قادراً على ذلك.

والواجب على الجميع البحث عن الحق، والرضى به، والائتلاف، والسعة فيما يسوغ فيه الاجتهاد، وتجنب نزعات النفوس وجنوحها إلى الخلاف، حباً في نصرة العصبية أحياناً، وفي طلب الجاه أحياناً، تلك الشهوة الخفية التي لا يدركها كثير ممن ابتلي بها، نسأل الله - تعالى - هدايته وتوفيقه.

كانت تلك بعض الجوانب التي تجلي للمسلم شيئاً من صفة صومه ﷺ، والتي ظهر النبي ﷺ من خلالها حريصاً على الإتيان بمستحبات الصوم وسننه وآدابه.

ومن نافلة القول ذكر أن النبي ﷺ كما كان محافظاً على النوافل والمستحبات، فقد كان أشد محافظة على إتيان الواجبات والابتعاد عن المحرمات، وكيف لا تكون حاله ﷺ كذلك، وهو الذي روى عن ربه قوله - عز وجل - في الحديث القدسي: «وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه»[1]، وقال ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل

---

(١) البخاري (٦٥٠٢).

فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه..»[١].

وهذا مما يدفع المسلم الحريص على النجاة إلى أن يتفحص أمره ويتأمل في واقعه، ويعمل على تحسين حاله في جميع شأنه، وكافة صلاته؛ ليكون أشد تأسياً بالنبي ﷺ وأكثر قرباً منه.

وإذا وعينا ذلك أدركنا خسارة فئة من جيل الصحوة والمنتسبين إلى الخير في وقتنا، من الذين يضيعون بعض الواجبات ويستهينون ببعض المخالفات، في سبيل الإتيان ببعض المستحبات؛ كما يفعله من يحافظ على التراويح، أو يسعى في الصدقات، ولو أهمل بعض حقوق والديه، أو تأخر عن الصلوات؛ لأن الحفاظ على رأس المال أولى من جَنْي الأرباح، متى كانت تلك الأرباح والفوائد لا تتحقق إلا بتضييع بعض الفرائض وإتيان بعض المنهيات، نسأل الله - تعالى - السلامة والفقه والعافية.

❖ قيامه ﷺ الليلَ في رمضان:

قيام الليل سمة الصالحين، ونهج المتعبدين، وسيرة عظمى للدعاة والمصلحين، شأنهم في ذلك شأن قدوتهم ﷺ الذي لم يترك حظه من قيام الليل سائر العام، إلا من عذر، فكيف في رمضان؟!

وقد جاءت نصوص عديدة تبين صفة قيامه وتهجده وصلاته، ولعل من أبرز ما تميز به قيامه ﷺ ما يلي:

١- أنه ﷺ لم يكن يزيد في قيامه على إحدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة

---

(١) البخاري (٦٠٥٧).

ركعة، كما يدل لذلك حديث زوجه أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - قالت: «ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة»[١]. وحديثها الآخر - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ يصلي بالليل ثلاث عشرة ركعة، ثم يصلي إذا سمع النداء بالصبح ركعتين خفيفتين»[٢].

وقد تنوعت الكيفيات الواردة عنه ﷺ في قيام الليل، فبأيّها أتى الناسك فهو على خير، وإن كان الأولى المزاوجة بينها مع الإكثار من صلاتها مثنى مثنى؛ اتباعاً للسنة، والله أعلم.

وجميع ما نقل عنه ﷺ في قيامه من عدد ركعات وكيفيات يدل دلالة بينة على أن إطالة القراءة بخشوع وتدبُّر في القيام، والذكر والدعاء بشهود قلب واستحضار لمعاني الركوع والسجود وسائر أقوال الصلاة وأفعالها أَتَمُّ في التأسي وأَوْلى من زيادة العدد، وإن كان في كل ذلك خير ومتسع؛ لدخوله في إطار قوله ﷺ: «صلاة الليل مثنى مثنى»[٣]، من غير حدٍّ بكيفية أو عدد.

والناظر في عصرنا هذا يجد اختلافاً معتاداً حول عدد الركعات في صلاة التراويح، وحين نتأمل في هديه ﷺ نجد أنه لم يوقت لأمته في قيام رمضان حداً محدوداً، وإنما حثهم على القيام فقط؛ فدل على التوسعة في هذا الأمر، وأن بإمكان المسلم أن يفعل ما يستطيع من ذلك بخشوع وخضوع

---

(١) البخاري (١١٤٧).

(٢) البخاري (١١٦٤).

(٣) البخاري (٩٩٠).

وطمأنينة، وإن كان الأفضل هو التأسي بفعله ﷺ من حيث الكم والكيف، من غير تحريج على من فتح له في تحصيل كمٍّ أو كيفٍ ما دام لم يخلّ بشيء من أركان الصلاة وواجباتها[١]، والله أعلم.

ومهما بلغ الحرص على الأجر لدى بعض طلبة العلم الذين يتبنون رأياً حاداً في المسألة، فإنه يخشى أن يكون ما يفوتهم من الخير بسبب عملهم ذلك أعظم بكثير مما ينالون من أجر تطبيق السنة! والله أعلم.

٢- **أنه ﷺ لم يكن يقوم الليل كله**، بل كان يخلطه بقراءة قرآن وغيره، يدل لذلك حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا قام ليلة حتى أصبح، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان»[٢].

وحديث ابن عباس - رضي الله عنهما - وفيه: «وكان جبريل يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه النبي ﷺ القرآن»[٣]، ولو كان قيام الليل قد استغرق عليه ﷺ الليل كله لما بقي فيه متسعاً لمدارسة جبريل - عليه السلام - القرآن، والله أعلم.

وفي ذلك إراحة للجسد، وتنشيط للنفس، وقيام بحق الأهل، وضمان لديمومة الاستمرار في دروب الطاعة، وإيغال في الدين برفق، وعدم تبغيض عبادة الله - تعالى - إلى النفس، إذ المُنْبتُ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى،

---

(١) لمزيد بيان انظر رسالة لطيفة بعنوان: مع الرسول في رمضان، لعطية محمد سالم.

(٢) أحمد(٢٤٢٦٨)، وإسناده صحيح على شرط الصحيحين.

(٣) البخاري (١٩٠٢).

والقليل الدائم خير وأحب إلى الله - عز وجلّ - من الكثير المنقطع، والله أعلم.

٣- أن غالب قيامه ﷺ كان منفرداً؛ خشية أن يفرض القيام على أمته، يدل لذلك حديث أنس - رضي الله عنه - قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي في رمضان، فجئت فقمت إلى جنبه، وجاء رجل آخر فقام أيضاً، حتى كنا رهطاً، فلما حسَّ النبي ﷺ أنَّا خلْفه جعل يَتَجوَّز في الصلاة[1]، ثم دخل رحله فصلى صلاة لا يصليها عندنا، قال: قلنا له حين أصبحنا: أفطنت لنا الليلة؟ قال: فقال: نعم، ذاك الذي حملني على الذي صنعت»[2].

وحديث عائشة - رضي الله عنها - «أن رسول الله ﷺ خرج من جوف الليل فصلى في المسجد فصلى رجال بصلاته؛ فأصبح الناس يتحدثون بذلك، فاجتمع أكثر منهم، فخرج رسول الله ﷺ في الليلة الثانية فصلوا بصلاته؛ فأصبح الناس يذكرون ذلك، فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج فصلوا بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله، فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ، فطفق رجال منهم يقولون: الصلاة، فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ حتى خرج لصلاة الفجر، فلما قضى الفجر أقبل على الناس، ثم تشهد فقال: أما بعد: فإنه لم يَخْفَ عليّ شأنكم الليلة، ولكني خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها»[3].

وحديث أبي ذر - رضي الله عنه - قال: «صمنا مع رسول الله ﷺ فلم

---

(١) أي: يخففها.

(٢) مسلم (١١٠٤).

(٣) البخاري (١١٢٩) وزاد: (وذلك في رمضان)، ومسلم (٧٦١) واللفظ له.

يصلِّ بنا حتى بقي سبع من الشهر، فقام بنا حتى ذهب ثلث الليل، ثم لم يقم بنا في السادسة، وقام بنا في الخامسة حتى ذهب شطر الليل، فقلنا له: يا رسول الله لو نفلتنا بقية ليلتنا هذه، فقال: إنه من قام مع الإمام حتى ينصرف كتب له قيام ليلة. ثم لم يصلِّ بنا حتى بقي ثلاث من الشهر وصلى بنا في الثالثة، ودعا أهله ونساءه فقام بنا حتى تخوفنا الفلاح، قلت له: وما الفلاح؟ قال: السحور»[(١)].

لقد كان النبي ﷺ - بأبي هو وأمي - عظيم الحرص على نفع أمته وتعليمها وإعانتها على الطاعة. انظر هنا كم أطال بهم القيام!

وقد جمع إلى ذلك الحرص تخوفاً شديداً من أن يفرض القيام على أمته فيقصِّر فيه أناس فيأثمون.. هذا مع شدة حرص صحابته الكرام على أن يقوم بهم غالب الليل، لكنه ينظر لمن بعدهم، وكأنه يرى ضعفنا وشدة عجزنا!

حقاً إنه كما قال ربنا الباري جل وعلا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وفي هذا درس بليغ للدعاة والمصلحين أن يجمعوا مع الاجتهاد وبذل غاية الوسع في هداية الناس ودعوتهم.. رفقاً عظيماً بالأمة ورحمةً واسعة بها، وتسهيلاً عليها، وتخوفاً شديداً من مقارفتها المنكر، ووقوعها في شيء من الإثم.

كما يظهر من تلك النصوص وغيرها فضل صلاة التراويح وأنها في مساجد المسلمين سنة مسنونة، شرعها النبي ﷺ، ثم تركها خشية أن تفرض

---

(١) الترمذي (٨٠٦)، وهو حديث صحيح.

على الناس، فلما كان في خلافة الفاروق - رضي الله عنه - وقد أُمن هذا الجانب وزالت الخشية بوفاته ﷺ، رأى الناسَ يصلون في المسجد أوزاعاً متفرقين، فقال: «إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل»، ثم عزم فجمعهم على أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه[(١)].

وقد كان هذا الفعل المبارك محلَّ قبول ظاهر من الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - حتى إن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بعد فَيْنَةٍ خرج في أول ليلة من شهر رمضان، والقناديل تزهر، وكتاب الله يتلى في المساجد فقال: نوَّر الله لك يا عمر بن الخطاب في قبرك، كما نوَّرت مساجد الله بالقرآن» [(٢)].

فالموفق من حافظ عليها، وتأسَّى بالنبي ﷺ في إقامتها، وبصحابته الكرام - رضي الله عنهم - في الحفاظ عليها.

وكيف لا يحرص المسدَّد على ذلك، وقد قال النبي ﷺ - لمن قال له من أصحابه حين صلى بهم حتى ذهب شطر الليل: لو نفلتنا بقية ليلتنا هذه - : «إنه من صلى مع إمامه حتى ينصرف كتب له أجر قيام ليلة» [(٣)]، فإنه دالٌّ على فضيلة قيام رمضان مع الإمام، والله - تعالى - أعلم.

وفي هذا السياق فإنه من غير الأولى ما نراه من ترك بعضهم - من الحريصين على الاتباع في تحديد عدد صلاة التراويح - إتمامَ الصلاة مع الإمام

---

(١) البخاري: (١٩٠٦)، والمستدرك، للحاكم (١٦٠٨).
(٢) فضائل القرآن، لابن أبي الدنيا (٣٠).
(٣) النسائي: (٣٦٤) وهو حديث صحيح.

حتى ينصرف إذا كان يزيد على الحد المتقرر عنده، وأحسب أن هذا اجتهاد مأجور، لكنه مفوتٌ للظفر بتحصيل أجر قيام ليلة، مع ما يصاحب ذلك عند بعضهم من مفارقة المختلفين معهم في العدد.

وفي أيامنا هذه فشت ظاهرة التنقل بين المساجد في صلاة التراويح بحيث يصلي الشخص كل ليلة أو مدة مع إمام، والظاهر أنه لا مانع منها في الأصل، ولِمَا قد يرافق قراءة الإمام حَسَن الصوت حَسَن الصلاة من تدبر وخشوع وطول قيام وتعاون على البر والتقوى.

وإنما المحذور ما قد يعلق في تطبيق ذلك من شوائب:

كالتأخر عن الخروج من المنزل للصلاة فتفوت بذلك تكبيرة الإحرام أو صلاة الجماعة، بل وفي أحيان تفوت المرء بعض صلاة التراويح، كل ذلك بداعي البحث عن إمام حسن الصوت! فيوقع المرء نفسه في الإثم، ويحرمها من الظفر بأجر قيام ليلة؛ لأنه لم يصلِّ الصلاة كاملة مع إمامه حتى ينصرف.

وكالتعلق بحُسن صوت الإمام، دون التركيز على تدبر الآيات وفهم معانيها، وما تحمله أقوال الصلاة وأفعالها من مظاهر انقياد واستسلام وخضوع للرب الكبير المتعال سبحانه.

وهذا الكلام كله في حال كون الإنسان في حاضرة الناس ويتيسر له حضور الجماعة، أما إن كان لوحده في بادية ونحوها أو تعذر عليه شهود الجماعة فإنه يصليها لوحده، والله - تعالى - يظفره بأجرها؛ لأن هذا غاية طاقته، والله - عز وجل - لا يكلف نفساً إلا وسعها.

٤- إطالته ﷺ لصلاة القيام:

كما يدل لذلك قول أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - حين سئلت:

كيف كانت صلاة رسول الله في رمضان؟ فقالت: «ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة: يصلي أربعاً فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً. فقلت: يا رسول الله، أتنام قبل أن توتر؟ قال: يا عائشة، إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي»[(١)].

وحديث النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال: «قمنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين إلى ثلث الليل الأول، ثم قمنا معه ليلة خمس وعشرين إلى نصف الليل، ثم قمنا معه ليلة سبع وعشرين حتى ظننا أن لا ندرك الفلاح. وكانوا يسمونه السحور»[(٢)].

وقد تأسى أصحابه الكرام - رضي الله عنهم - به ﷺ من بعده في إطالة القيام، فعن السائب بن يزيد - رضي الله عنه - قال: «أمر عمر بن الخطاب أبيَّ بن كعب وتميماً الداري أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة، قال: وقد كان القارئ يقرأ بالمئين حتى كنا نعتمد على العصيِّ من طول القيام، وما كنا ننصرف إلا في فروع الفجر»[(٣)]، وعنه - رضي الله عنه - عند البيهقي في الكبرى قال: «وكانوا يتوكؤن على عصيهم في عهد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - من شدة القيام»[(٤)].

وبذا يبين لنا خطأ كثير من أئمة المساجد الذين يخففون صلاة التراويح جداً

---

(١) البخاري (٢٠١٣).

(٢) النسائي(١٦١٦)، وهو حديث صحيح.

(٣) الموطأ، لمالك (٢٥٠).

(٤) السنن الكبرى، للبيهقي:٢/ ٤٩٦.

في رمضان، حتى إن المرء لا يكاد يفهم تمتمة قراءتهم فيها، ولا يتمكن من إقامة أركان الصلاة وواجباتها، فكيف بمستحباتها وما يعين على الطمأنينة فيها.

مع أنه من المتقرر عند أهل العلم أنه يكره للإمام أن يخفف الصلاة تخفيفاً يحول بين المأمومين وفعل ما يستحب، فكيف بما يجب؟!

ويبين أيضاً خطأ بعض الحريصين على الاقتداء به ﷺ، والذين يبذلون وسعهم في التأسي به في العدد، دون مراعاة كيفية قيامه ﷺ؛ من إطالة وخشوع ومزيد تذلل وطمأنينة، نسأل الله - تعالى - الهداية للخير والتوفيق للصواب.

لكن على من كان إماماً للناس في مسجد من مساجد المسلمين أن يطمئن على موافقة جماعته له، فإن لم يوافقوه على الإطالة الشديدة، فله أن يطيل بهم طولاً لا يشق عليهم؛ لقوله ﷺ: «إذا قام أحدكم للناس فليخفف، فإن منهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء» (١).

❖ اعتكافه ﷺ وخلوته بربه سبحانه:

والمتأمل في حاله ﷺ في الاعتكاف يلحظ أموراً تجلي له سنته وحاله فيه، ومن ذلك:

١- **اعتكافه ﷺ في المدينة في رمضان من كل سنة**، يدل لذلك حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ يعتكف في كل رمضان»(٢).

---

(١) البخاري (٧٠٣)، وانظر: قيام رمضان، للألباني: (١٧).

(٢) البخاري (٢٠٤١).

٢- تقلبه ﷺ في الاعتكاف في كل عشر من الشهر، ثم استقراره في آخر الأمر على الاعتكاف في العشر الأواخر منه؛ لإدراك ليلة القدر، والنصوص الدالة على ذلك عديدة، منها:

قوله ﷺ: «إني اعتكفت العشر الأُوَل ألتمس هذه الليلة، ثم اعتكفت العشر الأوسط، ثم أُتيت فقيل لي: إنها في العشر الأواخر؛ فمن أحب منكم أن يعتكف فليعتكف؛ فاعتكف الناس معه»(١).

وحديث عائشة - رضي الله عنها -: «أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله»(٢).

٣- أمرُه ﷺ بأن يضرب له خباء في المسجد يلزمه بعيداً عن الخلق، يخلو وحده فيه بربه ويجمع قلبه عليه عز وجل، بحيث يصير ذكره - تعالى - وحبه والخضوع له والانكسار بين يديه هي همُّ القلب واشتغاله، وموضع أنسه وخطراته، يدل لذلك:

حديث أبي سعيد - رضي الله عنه - : «أن رسول الله ﷺ اعتكف في قبة تركية على سدتها قطعة حصير، قال: فأخذ الحصير بيده فنحاها في ناحية القبة، ثم أطْلَع رأسه فكلم الناس»(٣).

---

(١) مسلم (١١٦٧).

(٢) البخاري (٢٠٢٦).

(٣) ابن ماجه (١٧٧٥)، وهو حديث صحيح.

وما رواه نافع عن ابن عمر - رضي الله عنهما - : «أن رسول الله ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان، قال نافع: وقد أراني عبد الله - رضي الله عنه - المكان الذي كان يعتكف فيه رسول الله ﷺ من المسجد»[١].

قال ابن القيم: «كل هذا تحصيلاً لمقصود الاعتكاف وروحه، عكس ما يفعله الجهال من اتخاذ المعتكف موضع عشرة ومجلبة للزائرين، وأخذهم بأطراف الأحاديث بينهم؛ فهذا لون، والاعتكاف النبوي لون، والله الموفق»[٢].

٤- **دخوله ﷺ معتكفه عند غروب الشمس يوم عشرين، واستهلال ليلة واحد وعشرين**، يدل لذلك: حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: «كان رسول الله ﷺ يجاور في رمضان العشر التي في وسط الشهر، فإذا كان حين يمسي من عشرين ليلة تمضي ويستقبل إحدى وعشرين رجع إلى مسكنه ورجع من كان يجاور معه، وأنه أقام في شهرٍ جاور فيه الليلة التي كان يرجع فيها، فخطب الناس فأمرهم ما شاء الله، ثم قال: كنت أجاور هذه العشر ثم قد بدا لي أن أجاور هذه العشر الأواخر، فمن كان اعتكف معي فليثبت في معتكفه، وقد أُريت هذه الليلة ثم أنسيتها، فابتغوها في العشر الأواخر، وابتغوها في كل وتر، وقد رأيتني أسجد في ماء وطين، فاستهلت السماء في تلك الليلة فأمطرت، فوَكَفَ المسجد في مصلى النبي ﷺ ليلة إحدى وعشرين»[٣]، فدل قوله ﷺ لمن اعتكف معه حين أمسى من عشرين ليلةٍ

---

(١) مسلم (١١٧١).

(٢) زاد المعاد، لابن القيم: ٢/ ٩٠.

(٣) البخاري (١٩١٤).

تمضي: «فمن كان اعتكف معي فليثبت في معتكفه» أن الدخول من صدر ليلة واحد وعشرين، ودل قول أبي سعيد - رضي الله عنه -: «فإذا كان حين يمسي من عشرين ليلة تمضي ويستقبل إحدى وعشرين رجع إلى مسكنه ورجع من كان يجاور معه» أن الخروج من اعتكاف يكون بمغيب شمس آخر يوم من أيامه.

والظاهر أنه لا يشكل على هذا التقرير حديث عائشة - رضي الله تعالى عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يعتكف صلى الفجر ثم دخل معتكفه» (١)، أي: الذي كان معتكفاً في الليل فيه، ويشهد لهذا التأويل اللفظ الآخر:«دخل مكانه الذي اعتكف فيه» (٢)، قال ابن عثيمين: «وهو يقتضي أنه سبق مكثه دخوله؛ لأن قولها:«اعتكف» فعل ماضٍ، والأصل استعماله على حقيقته» (٣)، فنيّة اعتكافه ﷺ كانت من أول الليل، لكنه كان مع الناس فلما صلى الصبح انفرد في معتكفه المعدِّ له عن الناس، والله أعلم.

وعليه؛ فيلج مريد الاعتكاف معتكفه عند غروب شمس يوم العشرين من الشهر، ويمكث فيه حتى يثبت دخول شهر شوال بإتمام رمضان ثلاثين أو شهادة شاهدين.

ويكون خروجه بغروب شمس ليلة العيد، وتلك المدة هي العشر الأواخر من رمضان التي يشرع اعتكافها، وبذلك ينقضي زمن الاعتكاف؛

---

(١) مسلم (١١٧٣).

(٢) البخاري (١٩٣٦).

(٣) مجموع فتاوى ابن عثيمين: ٢٠/ ١٧٢.

لأنه إنما شرع في رمضان ولا رمضان حينها، لكن بعض السلف استحبّوا للمعتكف أن يبقى في معتكفه حتى يخرج لصلاة العيد [١]، والله أعلم.

٥- **حرصه ﷺ وهو معتكف على حسن مظهره ونظافة جسده**، كما في حديث عروة قال: «أخبرتني عائشة أنها كانت ترجّل - تعني: رأس رسول الله ﷺ - وهي حائض ورسول الله ﷺ حينئذٍ مجاور في المسجد، يدني لها رأسه وهي في حجرتها؛ فترجّله وهي حائض» [٢].

قال ابن حجر: «وفي الحديث جواز التنظيف والتطيب والغسل والحلق والتزين إلحاقاً بالترجل، والجمهور على أنه لا يكره فيه إلا ما يكره في المسجد» [٣].

٦- **أنه ﷺ كان في اعتكافه لا يعود مريضاً ولا يشهد جنازة ولا يمس امرأة ولا يباشرها**، يدل لذلك قول عائشة - رضي الله عنها - قالت: «السُّنَّة على المعتكف أن لا يعود مريضاً، ولا يشهد جنازة، ولا يمس امرأة ولا يباشرها، ولا يخرج لحاجة إلا لما لا بد منه...» [٤].

٧- **زيارة أهله ﷺ له في حال اعتكافه وحديثه معهن**، يدل لذلك حديث صفية - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره

---

(١) انظر: مزيد تقرير في مجموع فتاوى ابن عثيمين: ٢٠/ ١٨٤.

(٢) البخاري (٢٩٦).

(٣) فتح الباري، لابن حجر: ٤/ ٣٢٠.

(٤) أبو داود (٢٤٧٣)، وقال أبو داود: (غير عبد الرحمن لا يقول فيه: قالت السنة. قال أبو داود: جعله قول عائشة)، وهو حديث حسن.

ليلاً فحدثته ثم قمت...»[١]، وفي رواية قالت: «كان النبي ﷺ في المسجد وعنده أزواجه فرُحْنَ...»[٢].

وهذا يدل على أن اعتكافه ﷺ لم يحل بينه وبين الاطلاع على شأن نسائه، ومتابعة أحوالهن، بخلاف ما عليه حال بعض المعتكفين في وقتنا من تضييع أُسرهم وإهمال أولادهم بصورة ظاهرة - سواء اعتكفوا في المسجد الحرام أو غيره -، فيقع طائفة من المراهقين والمراهقات بسبب ذلك الإهمال في أحوال لا تُحمد، فتضيع الواجبات وتنتهك المحرمات بداعي الاعتكاف والانقطاع للعبادة المستحبة!

ولست أدري أين أولئك الفضلاء من قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧]، ومن قوله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»[٣]، وضياع الدين والخُلُق أجلُّ وأخطر من جوع البطن وضعف الجسد.

ولا شك أن مثل هذا الفعل حرام، وأن إثمه أكبر من أجره؛ لأنه اشتغال بمستحب وترك لواجب، سواء أكان تضييع الأهل بسبب الانشغال باعتكاف، أم اعتمار، أم نحو ذلك من القرب وأعمال البر.

وإذا كان ذلك حال من يشتغل بالمستحبات على حساب الواجبات، فما بالك بمن يغفل عن واجب صيانة أسرته وتربية أولاده بتحصيل حطام

---

(١) البخاري (٣٠٣٩).
(٢) البخاري (١٨٩٧).
(٣)أحمد (٦٤٩٥)، وهو حديث صحيح لغيره.

الدنيا ومتعها في رمضان وفي غيره، لا شك أنها حالة أكثر فجاجة وأشد سوءاً.

فمن أعظم سبل القرب من حالة الكمال في التعبد الموازنة بين الواجبات من جهة، وبينها وبين المستحبات من جهة أخرى، بحيث يبدأ المرء بما هو أَوْلى فأَوْلى.

على أن من الأخيار من اتخذ العناية بالأسرة والاهتمام بالولد ذريعة لخداع نفسه وتبرير ضعفه في الطاعة، وتقاعسه عن الاستكثار من القرب في هذا الموسم الشريف والزمان الفاضل! وكل على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره.

نسأل الله أن يرزقنا الفقه في الدين، وتمام المتابعة لسيد المرسلين.

٨- **عدم خروجه ﷺ من معتكفه إلا لحاجة**، يدل لذلك قول عائشة - رضي الله عنها -: أنه ﷺ «كان لا يدخل البيت إلا لحاجة إذا كان معتكفاً»[١].

وحديث صفية - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً فحدثته ثم قمت فانقلبْتُ، فقام معي ليقلبني[٢]، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد»[٣].

وهذا بخلاف ما نلحظه اليوم من توسع بعض المعتكفين في الخروج من مسجد اعتكافهم بداعي الحاجة، ولا حاجة في كثير من الأحيان، والله المستعان.

---

(١) البخاري (٢٠٢٩).

(٢) أي: ليرجعني إلى بيتي.

(٣) البخاري (٣٢٨١).

٩- **إخراجه ﷺ بعض جسده الطاهر من المعتكف لحاجة**، يدل لذلك حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «...كان يخرج رأسه من المسجد وهو معتكف، فأغسله وأنا حائض»[(١)].

١٠- **تركه ﷺ الاعتكاف في رمضان - لمصلحة توجيه نسائه نحو الأفضل** وتطييب نفوسهن والتأليف بينهن - مع قضائه ﷺ له في العشر الأول من شوال من العام نفسه، يدل لذلك حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يعتكف صلى الفجر، ثم دخل معتكفه، وإنه أمر بخبائه فضُرب لما أراد الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، فأمرت زينب بخبائها فضرب، وأمر غيرها من أزواج النبي ﷺ بخبائه فضرب، فلما صلى رسول الله ﷺ الفجر نظر فإذا الأخبية، فقال: آلبرّ تُردن؟! فأمر بخبائه فقُوِّض وترك الاعتكاف في شهر رمضان حتى اعتكف في العشر الأُوَل من شوال»[(٢)].

فجمع ﷺ بين الحسنين؛ الاعتكاف من جهة، والحفاظ على مراعاة نفسيات زوجاته واستقرارها، وتربيته لهن على الابتعاد عما قد يشوب تعبدهن من خلل من جهة أخرى، فلله الحمد والمنة[(٣)].

١١- **قضاؤه ﷺ الاعتكاف إذا فاته لعذر**، إذ اعتكف عاماً في شوال لما ترك الاعتكاف من رمضان كما في الحديث السابق، ولم يعتكف ﷺ عاماً لخروجه

---

(١) البخاري (١٨٩٠).

(٢) البخاري (١٩٠٠)، ومسلم (٢٧٠٠) واللفظ له.

(٣) انظر: عمدة القاري، للعيني: ١١/١٤٨.

في سفر فاعتكف من العام القادم عشرين، يدل لذلك حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «كان النبي ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان، فلم يعتكف عاماً فلما كان في العام المقبل اعتكف عشرين»(١)، وحديث أُبيّ بن كعب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ «كان يعتكف في العشر الأواخر من رمضان، فسافر ولم يعتكف، فلما كان من العام المقبل، اعتكف عشرين»(٢).

فهو ﷺ لم يعطل سفره والمصالح المترتبة عليه بداعي الاعتكاف والانقطاع للعبادة، ولم ينسه مضي الوقت أنه ترك الاعتكاف في سنة مضت، فقضى ما فات وأتى في الزمن ذاته بمستحب الوقت.

ومن تبصر في واقع كثير من صلحاء عصرنا وجد أنهم يهملون الإتيان ببعض العبادات لصالح أخرى حين يتعذر الجمع بينها في الوقت ذاته، مع أنه يمكن المجيء بها جميعاً من خلال تقديم بعضها في وقت وتأجيل أخرى، والموفَّق من رزقه ربه فقهاً في الدين، وَجِدّاً في متابعة سيد المرسلين.

وقد كثر في الناس ترك هذه السنة المباركة، حتى قال الإمام الزهري: «عجباً للمسلمين! تركوا الاعتكاف، مع أن النبي ﷺ ما تركه منذ قدم المدينة، حتى قبضه الله عز وجل!»(٣).

وفي اعتكافه ﷺ وانقطاعه مع نفسه داخل خباء في مسجده؛ ليجتهد في ذكر ربه وعبادة مولاه عز وجل - مع كونه المنتصب لدعوة الناس القائم

---

(١) الترمذي (٨٠٣)، وهو حديث صحيح.

(٢) ابن حبان (٣٦٦٣)، وإسناده على شرط مسلم.

(٣) فتح الباري، لابن حجر: ٤/ ٣٣٤.

بشؤون الأمة - دليل على مسيس حاجة الدعاة والمصلحين إلى أوقات خلوة وأزمنة لمراجعة النفس ومحاسبتها.

والتقصير في ذلك يرسخ عيوب النفس ويزيد من أمراضها حتى تكون مزمنة دون أن يشعر المرء بذلك، كما أن حرمان القلب من زادِهِ مُورِثٌ لقسوته وغفلته وقلة بصيرته وفُرقَانه.

وأيضاً: فإن ترك استمداد عون المعين - عز وجل - طريق الخذلان وبوابة الخسران... ومن أفضل السبل لتدارك ذلك: الخلوة بالنفس لتهذيبها، وتكميل نقصها، وتجديد همتها، وتمتين بواعث قوتها في طريق مسيرتها إلى الله - تعالى - والدار الآخرة، ولا أفضل من الاعتكاف لتحقيق ذلك.

ومن تأمَّل في وقتنا في واقع كثير من أبناء جيل صحوتنا المباركة وجد ترك كثير منهم لهذه السنة المؤكدة مع جلالتها وعموم نفعها، وأثرها المبارك في تنقية النفس من أدرانها وتعويضها بعض ما فاتها من خير، ولا حول ولا قوة بالله العلي العظيم.

ومع أن الاعتكاف بدأ يظهر بفضل الله - عز وجل - في أوساط جيل الأمة، إلا أنه ما يزال يشوبه بعض المظاهر المخالفة لهدي النبي ﷺ، أو المنافية لمقصود الاعتكاف وآدابه.

ومن ذلك: التوسع في استخدام الهاتف السيار، حتى إن منهم من يدير تجارته من خلاله وهو في معتكفه؛ مخالفاً مقصود الاعتكاف في جمع القلب على الله - تعالى - والانقطاع عن الدنيا، والاشتغال بالتفكر والذكر، وهو لا يدري[1]

---

(١) يقول ابن عثيمين في مجموع فتاويه: ٢٠/١٥٨: (والمعتكف يبعد عن أعمال الدنيا، فلا يبيع ولا يشتري).

على أن البيع والشراء داخل المسجد مما ينهى عنه أيضاً[(١)].

لكن هل يُمْنع من استعمال الهاتف في قضاء حوائج المسلمين من غيرما توسع؟ الظاهر أنه لا يمنع من ذلك إذا لم يتوسع في ذلك بحيث يفقد الاعتكاف حقيقته الشرعية ويخرج به عن مقصوده، وحول ذلك يقول العلامة ابن عثيمين: «يجوز للمعتكف أن يتصل بالهاتف لقضاء حوائج بعض المسلمين إذا كان الهاتف في المسجد الذي هو معتكف فيه؛ لأنه لم يخرج من المسجد. أما إذا كان خارج المسجد فلا يخرج لذلك، وقضاء حوائج المسلمين إذا كان هذا الرجل معنياً بها فلا يعتكف؛ لأن قضاء حوائج المسلمين أهم من الاعتكاف؛ لأن نفعها متعدٍّ، والنفع المتعدي أفضل من النفع القاصر، إلا إذا كان النفع القاصر من مهمات الإسلام وواجبات الإسلام»[(٢)].

ومن ذلك: تجاوز بعض الصالحين منع والدِيهم لهم من الاعتكاف، مع أن الاعتكاف سنة، وطاعة الوالدين واجبة، والفرض مقدَّم على المستحب، كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «وما تقرب إليَّ بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه»[(٣)]، وللعلامة ابن عثيمين في هذا المسألة تفصيل يحسن ذكره، فيقول: «.. فإذا كان أبوك يأمرك بترك الاعتكاف ويذكر أشياء تقتضي أن لا تعتكف؛ لأنه محتاج إليك فيها، فإن ميزان ذلك عنده وليس عندك؛ لأنه قد يكون الميزان عندك غير مستقيم وغير عدل؛ لأنك تهوى الاعتكاف، فتظن أن هذه

---

(١) وقد ذهب الحنابلة إلى تحريم العقد وبطلانه، والجمهور على صحته مع الكراهة؛ انظر: فقه الاعتكاف للشيخ د.خالد المشيقح ص١٧٦.

(٢) مجموع فتاوى ابن عثيمين: ٢٠/ ١٨٠.

(٣) البخاري (٦٥٠٢).

المبررات ليست مبرراً، وأبوك يرى أنها مبرر، فالذي أنصحك أن لا تعتكف، لكن لو لم يذكر مبررات لذلك، فإنه لا يلزمك طاعته في هذه الحال؛ لأنه لا يلزمك أن تطيعه في أمر ليس فيه منفعة له، وفيه تفويت منفعة لك»(١).

وحينئذ: فعلى الابن أن يتلطف مع والديه، وأن يصاحبهما بالمعروف، ويسعى لتحقيق عبادته برفق.

ومن ذلك: إضاعة الوقت بالنوم والمزاح والقيل والقال والحديث فيما لا يعني.

ومن ذلك: عدم المحافظة على أعمال اليوم والليلة من سنن وأذكار مطلقة ومقيدة؛ كالسنن الرواتب وسنة الضحى وسنة الوضوء وكثرة الذكر والدعاء ومدارسة القرآن والتذاكر بين المعتكفين والحفاظ على الصف الأول والأذكار التي تشرع في دبر كل صلاة.. ونحو ذلك من الأمور التي يحسن عناية المعتكف بها، بل تزكية النفس بها هي لب الاعتكاف ومقصوده(٢).

والمشاهد أن من يعتكف في مسجد خارج بلده، كمن يعتكف في الحرمين مثلا يدع التنفل بالصلاة مطلقاً بداعي السفر، وهذا من خلاف الأولى؛ «لأن الرسول ﷺ لا يمنعه السفر من أن يتطوع بالصلاة، بل كان - عليه الصلاة والسلام - يدع سنة الظهر، وسنة العشاء، وسنة المغرب، وباقي النوافل باقية على أصل استحبابها»(٣).

نسأل الله - تعالى - أن يلهمنا الفقه والتوفيق والرشاد.

---

(١) مجموع فتاوى ابن عثيمين: ٢٠/ ١٥٩.

(٢) انظر: دروس رمضان، للحمد: (١٧٢).

(٣) مجموع فتاوى ابن عثيمين: ٢٠/ ١٦٧.

❖ **اجتهاده ﷺ في العشر الأواخر:**

وهذا من أبرز أحواله الرمضانية ﷺ، يدل عليها:

حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان الناس يصلون في المسجد في رمضان... [وفيه: أن الرسول ﷺ قال:] أيها الناس! أما والله ما بِتُّ ليلتي هذه بحمد الله غافلاً، ولا خفي علي مكانكم»(١).

وحديثها - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره»(٢).

وحديثها الآخر قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل، وأيقظ أهله، وجدَّ وشدَّ المئزر»(٣).

ويستفاد من قولها: «إذا دخل العشر أحيا الليل» أنه ﷺ كان يخلط الليالي العشرين الأُول من الشهر بعبادة ونوم، فإذا دخلت العشر لم يأتِ الفراش فيها، وكانت كلها عبادة، والله أعلم(٤).

ويتجلى لنا من خلال تلك النصوص أن النبي ﷺ قد بلغ في هذه العشر الغاية في الخضوع لله - تعالى - والانكسار بين يديه، وأنه قد جمع أصول التعبد من صلاة وصيام وتصدق وقراءة وذكر ودعاء وتفكر ومحبة وتوكل وخوف ورجاء ومحاسبة وتوبة وجَمْع قلبٍ عليه عز وجل.... إلى آخر ذلك

---

(١) أبو داود (١٣٧٤)، وهو حديث صحيح.

(٢) مسلم (١١٧٥).

(٣) مسلم (١١٧٤).

(٤) ورد في حديث ضعيف في المسند: ٦/١٤٦ عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ يخلط العشرين بصلاة ونوم؛ فإذا كان العشر شمَّر وشدَّ المئزر».

من صنائع الخير وأعمال البر.

فأين نحن من استثمار هذا الموسم المبارك قبل انقطاع الأعمار وحضور الآجال، والانتقال من دار المهلة والعمل إلى دار ختامها فريق في الجنة وفريق في السعير؟ نسأل ربنا المنان المزيد من عظيم لطفه وواسع جوده.

فاعرف يا رعاك الله لهذه العشر الليالي العظام منزلتها، وهيِّئ أسباب إحيائها، واحذر أن تحجبك غفلة أو كسل عن استثمارها، فإن وقتها ثمين وخيرها ظاهر مبين.

❖ حرصه ﷺ على تحرِّي ليلة القدر وقيامها:

تلك الليلة الشريفة التي أخفى الله - تعالى - علمها عن البشر ليميز الجاد في طلبها من المتهاون بأمرها.

ومما ورد في تحرِّيه ﷺ ليلة القدر:

حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إني اعتكفت العشر الأول ألتمس هذه الليلة، ثم اعتكفت العشر الأوسط، ثم أُتيت فقيل لي: إنها في العشر الأواخر؛ فمن أحب منكم أن يعتكف فليعتكف؛ فاعتكف الناس معه»(١).

والمتأمل في سيرة النبي ﷺ في رمضان يجد أنها غنية جداً بتحري ليلة القدر وقيامها، وما ذاك إلا لشرفها وعلو كعبها بين سائر الليالي، فهي ليلة سلام وبركة وتنزل ملائكة، وهي خير من ألف شهر، يفرق فيها كل أمر

---

(١) مسلم (١١٦٧).

حكيم، ويغفر لمن قامها إيماناً واحتساباً ما تقدم من ذنبه.

وإن من أعظم ما يجب التأسي به ﷺ في هذه الليلة المباركة الحفاظ على أداء صلاتي المغرب والعشاء في المسجد جماعة، إذ لا يجوز تضييع الواجب بداعي تحصيل المستحب، إذ ما تقرب أحد إلى ربه - تعالى - بمثل أداء ما افترضه عليه، يقول الضحاك: «من صلى المغرب والعشاء في رمضان فقد أصاب من ليلة القدر حظاً وافراً»[١].

ومن رزقه الله - تعالى - بصيرة في الدين كان تقربه إليه - عز وجل - وفق مرضاته، وتأسياً بنبيه ﷺ، لا بحسب رغباته وما تميل إليه نفسه.

وينبغي أن يكون هذا الحرص على التأسي به ﷺ في هذا الجانب عاماً لدى الرجال والنساء، فإن النبي ﷺ في تحريه لها جمع أهله ونساءه والناس[٢]، وثبت أن عمر - رضي الله عنه - لما جمع الناس على القيام جعل على الرجال أُبيَّ بن كعب، وعلى النساء سليمان بن أبي حثمة[٣]، وعن عفجة الثقفي «أن علياً - رضي الله عنه - كان يأمر الناس بالقيام في شهر رمضان، ويجعل للرجال إماماً وللنساء إماماً، قال: فأمرني فأممت النساء»[٤].

ولذا؛ فعلى كل سائر موفق - ذكراً أو أنثى - أن يحرص على تحري هذه الليلة الشريفة وقيامها خير القيام، فإنها إحدى منن الله العظمى على هذه الأمة، تتضاعف فيها الحسنات، وتتنزل الرحمات، وتختزل فيها السنين الطوال

---

(١) قيام رمضان، للمروزي (٩٢).

(٢) أبو داود (١٣٧٧)، وهو حديث صحيح.

(٣) السنن الكبرى، للبيهقي: (٢/ ٤٩٤).

(٤) عبد الرزاق (٥/ ٢٥).

في لحظات، فأخلص يا عبد الله نيتك، وأحسن متابعة نبيك ﷺ، وشد من عزيمتك، واحذر أن يكون حظك من صيامك الجوع والعطش، ومن قيامك التعب والسهر.

اللهم ألهمنا توفيقك، وارزقنا عونك وتثبيتك، يا رب العالمين.

❖ مدارسته ﷺ القرآن مع جبريل عليه السلام:

العناية بالقرآن الكريم مفتاح الصلة بالله تعالى، وأسلوب مدارسته مع آخرين طريقٌ لتدبُّره وفهم معانيه، وهو من باب التعاون على البر والتقوى، وقد اختار الله - تعالى - لنبيه ﷺ جبريل ليكون رفيقه في مدارسة القرآن في شهر الصيام.

وقد جاءت بذلك نصوص عدة، منها:

حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - وفيه: «وكان جبريل - عليه السلام - يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه النبي ﷺ القرآن»[1]، وفيه أن النبي ﷺ أَسَرَّ إلى ابنته فاطمة - رضي الله عنها -: «إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي»[2].

قال ابن حجر: «فكان جبريل يتعاهده في كل سنة فيعارضه بما نزل عليه من رمضان إلى رمضان، فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه به مرتين»[3].

---

(١) البخاري (١٩٠٢).

(٢) البخاري (٣٦٢٤).

(٣) فتح الباري: ١/ ٤٢.

والمستفاد من قوله ﷺ «يعارضني» وقول ابن عباس - رضي الله عنهما - في الرواية الأخرى «فيدارسه»[١]: أن كلاً منهما كان يقرأ تارة والآخر يستمع؛ لأن صيغة المفاعلة تفيد وقوع الشيء من الجانبين[٢].

وهذا بين في أثر الرفقة الصالحة، وأن المرء إذا أراد أن يستفيد من الشهر فليحسن اختيار من يخالط ويجالس.

وكم رأينا من هوى في أوحال المنكرات في هذا الشهر المبارك بسبب الجليس السوء! ممن يقرب إليه المعصية في شاشة أو ملعب أو مطعم أو مشرب، ويبعد عنه الطاعة ويثقلها عليه، فليتق العبد ربه في هذا الجانب، فإن المرء على دين خليله، فلينظر أحدنا من يخالل.

والحديث يدل على استحباب مدارسة القرآن، وعلى مزية القراءة بالليل على النهار[٣]، وعلى استحباب الإكثار من القراءة في رمضان، وأن زيادتها توجب زيادة الخير، وأن الجليس الصالح ينتفع المرء بمجالسته.

قال ابن حجر: «المقصود من التلاوة: الحضور والفهم»[٤].

وقال ابن بطال: «وما كانت مدارسته للقرآن إلا لتزيده رغبة في الآخرة وتزهداً في الدنيا»[٥].

---

(١) البخاري (٦).

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر: ٨/ ٦٥٩.

(٣) لكن إن وجد المرء أن القراءة في النهار أنفع له، وأفرغ لقلبه فهي أفضل، والله أعلم.

(٤) فتح الباري، لابن حجر: (٩/ ٤٥).

(٥) شرح البخاري، لابن بطال: (١/ ١٣).

وقد صرنا في أيامنا بفضل الله - تعالى - نرى حرص كثيرين على ختم القرآن في رمضان مرة أو أكثر، وهذا من الخير العميم، ولكن الإشكال في الإخلال الحاصل بآداب التلاوة وسننها، إذ يهذّ بعض القراء في التراويح وغيرها القرآن الكريم كهذّ الشعر، من غير تدبُّر لمعانيه وتفهم لأحكامه وخشوع عند تلاوته، والله - عز وجل - يقول: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[ص: ٢٩].

صحيح أنه ينبغي اغتنام شرف الوقت، وأنه ثبت عن السلف الصالح أنهم كانوا يكثرون من تلاوة القرآن في رمضان في الصلاة وفي غيرها، حتى قال الزهري: «إذا دخل رمضان فإنما هو قراءة القرآن وإطعام الطعام» [١]، و«كان مالك إذا دخل رمضان فرَّ من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف» [٢].

وكان عامتهم يختم القرآن في مدد قصيرة، في كل عشر أو سبع أو ثلاث، بل ثبت عن بعضهم في رمضان خاصة ختمه في أقل من ثلاث [٣]، وهو وإن كان محتملاً؛ مراعاةً لشرف الزمان، من أئمة أثبات تعمقوا في التفقه في آيات الكتاب العزيز في سائر العام، إلا أنه غير سائغ من أناس لا يكادون يعرفون

---

(١) التمهيد، لابن عبد البر:٦/ ١١١.

(٢) لطائف المعارف، لابن رجب:١٨٣.

(٣) انظر بعض ذلك في: لطائف المعارف، لابن رجب: ١٨٣ وما بعدها، وفيه أن بعضهم حمل النهي الوارد عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة، لا على الأمر العارض؛ في اغتنام شرف الزمان والمكان؛ لكون سياق الحديث في خبر عبدالله بن عمرو؛ هو في بيان الحزب الدائم.

تلاوة القرآن إلا في رمضان، وقد قال ﷺ: «لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث»[١].

ومن المهم أن ينوه إلى أن تلاوة القرآن لا بد أن تورث تصديقاً بالأخبار واتباعاً للأحكام، فهو حجة للعبد أو عليه كما قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: «إن القرآن شافع مشفع وماحل[٢] مصدق، فمن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار»[٣].

وقد كان ذلك هو نهج النبي ﷺ في تعليم آيات الكتاب العزيز، كما قال أبو عبد الرحمن السلمي: «حدثنا الذين كانوا يقرؤون القرآن، كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما.. أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً»، قال السيوطي عقبه: «ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة»[٤].

فتالي القرآن ينبغي أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد، يقول ابن مسعود – رضي الله عنه –: «ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس يفطرون، وبحزنه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يختالون»[٥]، ويقول عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - :

---

(١) رواه أبوداود (١٣٩٢) ، ابن حبان (٧٥٨)، وهو حديث صحيح.

(٢) الماحل:الساعي، انظر: غريب الحديث، لابن سلام: ٤/ ١٧٤.

(٣) عبد الرزاق (٦٠١٠).

(٤) الإتقان، للسيوطي:٢/ ٤٦٨، والحديث رواه أحمد ٥/ ١٣٠ وغيره.

(٥) شعب الإيمان، للبيهقي(١٨٠٧).

«لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض، ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو ويصفح»[١].

وقال الحسن: « إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل، وجعلتم الليل جَمَلاً فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار» [٢].

فإذا كان هذا الحرص وتلك العناية بمدارسة القرآن ممن جمع الله - تعالى - له القرآن في صدره، وتولى تفهيمه إياه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧ - ١٩]. فما أحوجنا إلى مثل تلك المدارسة لننعم بهداية القرآن الكريم، ولتستقر معانيه في صدورنا، فننطلق إلى العمل به والخضوع له عز وجل وفق هديه وإرشادات كتابه!

وهل الأفضل أن يجتمع المرء مع غيره لمدارسة القرآن، أو أن يقرأ كل إنسان بمفرده؟

الظاهر أن مرَدَّ ذلك إلى المرء نفسه، فإن كان يتحقق في اجتماعه مع الآخرين مزيد تدبُّر وخشوع وانتفاع أكثر فهو أفضل، وإن كان يتحقق ذلك بالانفراد فهو أفضل[٣]، والله أعلم.

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١/ ٥٣.
(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي: ١/ ٢٧٥.
(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن عثيمين: ٢٠/ ٧٨.

وسيأتي قريباً كيف كان لهذه المدارسة أثر في جوده ﷺ وإحسانه، وقُلْ مثله في تواضعه وزهده وتذلله وانكساره وكمال أحواله.. إنها هداية القرآن للتي هي أقوم.

وفي ذلك إشارة إلى أن العكوف على القرآن مُعين على الدعوة إلى الله تعالى، والاستكثار من الطاعات وصنائع المعروف، فيكون أحوج الناس إليه أهل تلك الأعمال، مهما كثر اشتغالهم بها؛ إذ القرآن زادُهم ليكونوا أجود بالخير وأسرع بالبر.

ومن تأمل في واقعنا أدرك أن عامة بلاء أمتنا اليوم ناجم عن هجر القرآن، وضعف مدارسته المدارسة المبنية على تعظيم ورغبة في الانقياد والعمل، وأنه لا خلاص من هذا التيه الذي نعاني منه إلا بالعودة إلى القرآن الكريم، تلاوة وتدبراً وعملاً وتحاكماً، نسأل الله سداده وعونه.

❖ تواضعه ﷺ وزهده:

وهي من سِمَات مَنْ رقيت نفسه، وعرف عظمة معبوده حق المعرفة وشدة ضَعْف نفسه، وقد كانت تلك حال الحبيب ﷺ أعرف الناس بربه، وأكثرهم له خشية. فكانت تلك المعرفة والخشية مورثتين لتواضع القلب للشرع والخلق، ولقوة التعظيم لله - تعالى - ونماء الصلة به، وللزهد في الدنيا والتعلق بحياة الآخرة.

وقد برز زهده وتواضعه ﷺ في رمضان في مواطن عدة، منها:

١- صلاته ﷺ قيام الليل على حصير، كما في حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان الناس يصلون في المسجد في رمضان أوزاعاً، فأمرني

رسول الله ﷺ فضربتُ له حصيراً فصلى عليه»[١].

٢- تواضع معتَكَفه ﷺ، كما في حديث أبي سعيد - رضي الله عنه - : «أن رسول الله ﷺ اعتكف في قبة تركية على سُدتها قطعة حصير، قال: فأخذ الحصير بيده، فنحاها في ناحية القبة، ثم أطلع رأسه فكلم الناس»[٢]، وفي حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأواخر من رمضان فاتُّخِذ له فيه بيت من سعف..»[٣].

٣- سيلان ماء المطر من سقف المسجد على مصلاه ﷺ وسجوده في ماء وطين، كما في حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - ، وفيه: «... فاستَهَلَّت السماء في تلك الليلة فأمطرت؛ فوكف المسجد في مصلى النبي ﷺ ليلة إحدى وعشرين، فبصرت عيني رسول الله ﷺ ونظرت إليه انصرف من الصبح ووجهه ممتلئ طيناً وماء»[٤].

٤- تواضع فطوره وسحوره ﷺ، يدل لذلك حديث خادمه أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «كان النبي ﷺ يفطر قبل أن يصلي على رطبات، فإن لم تكن رطبات فتميرات، فإن لم تكن تميرات حسا حَسَوات من ماء»[٥].

وحديثه الآخر - رضي الله عنه - قال: «قال رسول الله ﷺ - وذلك عند

---

(١) أبو داود (١٣٧٤)، وهو حديث حسن.

(٢) ابن ماجه (١٧٧٥)، وهو حديث صحيح.

(٣) أحمد (٥٣٤٩) وهو حديث صحيح، والسعف: أغصان النخلة إذا يبست.

(٤) البخاري (٢٠١٨).

(٥) الترمذي (٦٩٦)، وهو حديث صحيح.

السحور - : يا أنس إني أريد الصيام؛ أطعمني شيئاً! فأتيته بتمر وإناء فيه ماء، وذلك بعدما أذن بلال»[١].

٥- قلة طعامه ﷺ، يدل لذلك حديث ضمرة بن عبد الله بن أنيس عن أبيه قال: «كنت في مجلس بني سلمة - وأنا أصغرهم - فقالوا: من يسأل لنا رسول الله ﷺ عن ليلة القدر؟ - وذلك صبيحة إحدى وعشرين من رمضان - فخرجت فوافيت مع رسول الله ﷺ صلاة المغرب، ثم قمت بباب بيته فمر بي، فقال: ادخل، فدخلت فأُتي بعشائه، فرآني أكفُّ عنه من قلّته،...»[٢].

ومن هذا يتبين أن الأقرب إلى هديه ﷺ هو التواضع والزهد «وهو: ترك ما لا ينفع في الآخرة»، والتبسط وترك التكلف والتقلل من نعيم الدنيا والحرص على الاخشوشان والبذاذة أحياناً، حتى لا تنغمس النفس في ركام الشهوات وأودية الملذات فتُرْديها، وتقع في حبالها فتأسرها؛ لأن أصل التعبد خضوع النفس وانقيادها برغبة ورضى ومحبة لحكم الشرع، والتعلقُ بالدنيا والاشتغال الكثير الملهي بنعمائها مناقض لذلك وصادّ عنه.

وبهذا يُدْرَك أن الحد الأدنى من الزهد واجب، وضابطه: أن لا يقارف المرء شهوة محرمة، وأن لا يلتهي بملذة مباحة عن أداء واجب، وما زاد عن ذلك من مفارقة الشهوات المكروهات أو الملذات المباحات التي تسربل المرء في أثواب الغفلة وتحول بينه وبين المستحب من عمل الآخرة.. ففضل ومزيد يقظة.

---

(١) النسائي (٢١٦٧)، وهو حديث صحيح.

(٢) أبو داود (١٣٧٩)، وهو حديث حسن.

وليس المراد أن نعرض عن الملذات مطلقاً، فإن تلك رهبانية مبتدعة، نفاها الله - تعالى - عن هذا الدين، بل المراد أن نقتفي أثر رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، والذين يجد من تأمل في سيرهم أن حياتهم كانت بحسب الحال، بحيث لا يمتنعون عن موجود من غير سرف ولا مخيلة، ولا يتكلفون حَوْز مفقود، فنسأل ربنا الرحمن أن يهدينا طريقهم ويوفقنا لاتباعهم، بمنِّه وإحسانه عز وجل.

فتحصيل المال بذلك الضابط غير مذموم، لكن لا بد أن يرافق العبدَ أثناء ذلك التحصيل تواضع القلب لله - تعالى - وإخباته له، وإقباله عليه، وطمأنينته ورضاه به، وتعلقه بنعيم الآخرة الباقي، وهذه حقيقة الزهد..، لا أن نترك الإغراق في ذلك ظاهراً، والقلوب شغوفة به متطلعة إليه مشغولة بالتفكير في كيفية الظفر به وتحصيله، إذ تلك عبودية دنيا كعبودية الدرهم والدينار، لكنها جمعت مع حرص القلب بخلَ اليد، مهما أكثر العبد فيها من التحلي بمظاهر التواضع والورع واكتساء أردية الزهد، نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

❖ إكثاره ﷺ من البر والصدقة:

وهذه من ثمرة مدارسة القرآن والعيش معه، التي ذكرها ابن عباس - رضي الله عنهما - بقوله: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من

رمضان فيدارسه القرآن، فلَرَسولُ الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة»[(١)].

وعلة زيادة جوده ﷺ وإحسانه في رمضان عنه في غيره: «أن مدارسة القرآن تجدد له العهد بمزيد غنى النفس، والغنى سبب الجود»[(٢)].

وقد كان جوده ﷺ « يجمع أنواع الجود كلها، من بذل العلم والنفس والمال لله - عز وجل - في إظهار دينه وهداية عباده وإيصال النفع إليهم بكل طريق من تعليم جاهلهم وقضاء حوائجهم وإطعام جائعهم» [(٣)].

ويستفاد من قول ابن عباس - رضي الله عنهما - : «أجود بالخير من الريح المرسلة» سرعة مبادرته ﷺ في الجود والإحسان في رمضان، واستنفاع الجميع بذلك كما هي سرعة الريح المرسلة، وعمومها لجميع ما تهب عليه، قال ابن المنيِّر في شرحه للحديث: «أي: فيَعمُّ خيره وبره من هو بصفة الفقر والحاجة، ومن هو بصفة الغنى والكفاية، أكثر مما يعم الغيث الناشئة عن الريح المرسلة ﷺ»[(٤)].

إنه أثر القرآن.. وثمرة الزهد.. ونتاج التعلق بالرحمن، وكفى بذلك باعثاً وخلقاً!

ولذا فالإكثار من البذل والصدقة في هذا الشهر مما يحث عليه المسلم جداً، قال الشافعي: «أحب للرجل الزيادة بالجود في شهر رمضان؛ اقتداء

---

(١) البخاري (٣٢٢٠).

(٢) فتح الباري، لابن حجر: ١/ ٤١.

(٣) مجموع فتاوى ابن عثيمين: ٢٠/ ٢٦٢.

(٤) فتح الباري، لابن حجر: ٤/ ١٣٩.

بالرسول ﷺ لحاجة الناس فيه إلى مصالحهم، وانشغال كثير منهم بالصوم والصلاة عن مكاسبهم»[١].

والمتأمل في سيرته ﷺ يجد أن الجود كان من أكثر سجاياه بروزاً في حياته، وأنه ما لبث ملازماً له ولم ينفك عنه لحظة، إذ ما كان ﷺ يدخر شيئاً عنده من خير عن الناس[٢]، وما سئل ﷺ شيئاً قط فقال: لا[٣]، إلا أن جوده ﷺ كان في رمضان أجلى وأكثر وضوحاً، وهذا يعني أن من أهم الخلال التي لا بد لدعاة الأمة من التحلي بها: الكرم والجود بكافة أنواعه: وقتاً وجاهاً ومالاً ولطافة..؛ لأنه ما تمكن من كسب قلوب الأمة وقيادها بقابلية واختيار عبر تاريخها الطويل.. جبانٌ أو بخيل.

والواضح من الحديث أن كرمه ﷺ كان يصل من يستحقه ويحتاج إليه قبل أن يذوب في طلبه ماء الحياء من وجهه، كحال الريح المرسلة تأتي الناس برحمات خالقها في ديارهم وأراضيهم، وهذا يعني أن على من ابتلاه الله - تعالى - بنعمة المال أو كان وكيلاً عن الأغنياء في ذلك: مؤسسات وأفراداً، وبخاصة في هذا الشهر الفضيل أن يتقوا الله في هذا الجانب، فيجعلوا من عطائهم عامل تقوية لآخذيه وتنفيساً عن مستحقيه، لا سبيلاً نحو مزيدٍ من كسر القلب والمهانة والذل، نسأل الله - تعالى - لنا ولهم المعونة والسداد.

---

(١) معرفة السنن والآثار، للبيهقي: ٧ / ٣٠٧.

(٢) انظر: البخاري (٦٤٧٠).

(٣) انظر: مسلم (٦١٥٨).

❖ جهاده ﷺ في رمضان:

حيث جعل منه شهر بلاء وبذل وفداء، ولجهاده ﷺ في هذا الشهر المبارك شأن يتجلى في أمرين اثنين:

الأول: وقوع أهم غزواته الفاصلة وأعظم انتصاراته في رمضان، وقد جاء ذلك في نصوص عديدة منها:

حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ لستٍّ عشرة مضت من رمضان، فمنا من صام ومنا من أفطر»، وفي لفظ: «كنا نغزو مع رسول الله ﷺ في رمضان فمنا الصائم ومنا المفطر، فلا يجد الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم»[(١)].

وحديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ في رمضان غزوتين: يوم بدر والفتح؛ فأفطرنا فيهما»[(٢)].

بل حتى غزوة تبوك - تلك الغزوة التي وطدت سلطان الإسلام في شمال جزيرة العرب، والتي خرج فيها النبي ﷺ من المدينة في رجب من السنة التاسعة - ؛ ما عاد ﷺ منها إلا في شهر رمضان[(٣)].

الثاني: تعدد السرايا والبعوث التي كانت في رمضان، والتي من أبرزها:

١- سرية حمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه - إلى سيف البحر؛ لاعتراض قافلة لقريش عائدة من الشام، وذلك في رمضان من السنة الأولى

---

(١) مسلم (١١١٦).

(٢) الترمذي (٧١٤)، وهو حديث له ما يقويه.

(٣) الطبقات لابن سعد: ٢/ ١٦٥ - ١٦٧.

من الهجرة[١].

٢- سرية عمرو بن عدي الخطمي - رضي الله عنه - لقتل العصماء بنت مروان التي كانت تعيب الإسلام وتحرض بشِعرها على المسلمين، وذلك بعد بدر في رمضان من السنة الثانية من الهجرة[٢].

٣- سرية عبد الله بن أبي عتيك - رضي الله عنه - لقتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق لاشتراكه في تحزيب الأحزاب على المسلمين في الخندق، وذلك في رمضان من السنة السادسة من الهجرة[٣].

٤- سرية أبي قتادة بن ربعي - رضي الله عنه - إلى بطن إضم، لصرف نظر قريش عن خطته ﷺ لفتح مكة، وذلك في أول رمضان من السنة الثامنة من الهجرة[٤].

٥- سرية خالد بن الوليد - رضي الله عنه - إلى العُزَّى ليهدمها، في رمضان من السنة الثامنة من الهجرة[٥].

٦- سرية عمرو بن العاص - رضي الله عنه - إلى سُواع ليهدمها، في رمضان من السنة الثامنة من الهجرة[٦].

٧- سرية سعد بن زيد الأشهلي - رضي الله عنه - إلى مناة ليهدمها، في

---

(١) المغازي، للواقدي: ١/ ٩، الطبقات، لابن سعد: ٢/ ٦.
(٢) المغازي، للواقدي: ١/ ١٧٤، الطبقات، لابن سعد: ٢/ ٢٧.
(٣) المغازي، للواقدي: ١/ ٣٩٥، الطبقات، لابن سعد: ٢/ ٩١.
(٤) المغازي، للواقدي: ٢/ ٧٩٦، الطبقات، لابن سعد: ٢/ ١٣٣.
(٥) الطبقات، لابن سعد: ٢/ ١٤٥.
(٦) الطبقات، لابن سعد: ٢/ ١٤٦.

رمضان من السنة الثامنة من الهجرة[١].

وفي جهاده ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم - في رمضان مع اجتهادهم في العبادات الأخرى دلالة على أثر الصيام الإيجابي فيما يورثه لصاحبه من نشاط وقوة في القلب تورث انطلاقةً وقوة في الجسد، وإن كان المشروع لهم حال القتال أو القرب منه هو الفطر وترك الصوم.

وفي هذا دلالة ظاهرة على التلازم القوي بين الجهاد والتعبد، وبين العمل للدين ومنافحة أعداء المرسلين من جهة، وبين محبة الله - تعالى - وتعظيمه وإجلال أمره ونهيه من جهة أخرى، وأن ذلك صفة جلية من صفات المجاهدين الصادقين، كما قال - تعالى - مبيناً أوصاف جنده والذائدين عن دينه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، وكما قال سبحانه قارناً بين ذلك في سياق التحذير من التشاغل بشهوات الدنيا وملذاتها عن دروب الطاعة: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

---

(١) الطبقات، لابن سعد: ٢/ ١٤٦ - ١٤٧.

على أن ما يحتاجه الجسم من الغذاء أقل مما يتصوره اليوم كثير من الناس، وإنما تخور قوى الصائمين المترفين الذين أَلِفوا الملذات فجهدت نفوسهم بغياب ملذاتها وشهواتها وتأخرها عنهم؛ فَخَوَرهم في عامته نفسيٌّ لا جسدي، إذ لنفوسهم على قلوبهم غَلَبَة وسلطان، والله المستعان.

ونحن في وقتٍ وإن تعسر فيه الجهاد بالسنان أمام عامة أبناء الإسلام، فما زالت أمامهم مهام جسام وأنواع جهاد أخرى تُمَكّن للإسلام وتستعيد له سُؤدده.

إذ هناك جهاد النفس، وكذا الاحتساب على أهل الفساد، وأيضاً: تبصير الناس بمحاسن الدين وأحكامه وتربية الأجيال عليه.

وهناك بيان المفهوم الصحيح للجهاد وتطبيقاته الشرعية، والتي تشوهت كثيراً في أيامنا - ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم - على أيدي بعض أبناء الإسلام قبل شانئيه!

وهناك كافة صور العمل لهذا الدين والتي تُحيي الجدية في الأمة، وتملكها مجالات القوة في كافة دروب النهضة ومحاورها؛ لتنبثق على أيدينا - بإذن الله تعالى - حياة العزة لهذا الإسلام العظيم من جديد، كلٌّ بحسب علمه وقدرته، وما ثباتي وتوفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

❖ مخالفته ﷺ أهل الكتاب في أعمال رمضان:

وهذا بيِّن من قوله ﷺ: «لا يزال الدين ظاهراً ما عجَّل الناس الفطر؛ لأن اليهود والنصارى يؤخرون»[١].

---

(١) أبو داود (٢٣٥٣)، وهو حديث حسن.

وقوله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما عَجَّلُوا الفطرْ. عَجِّلُوا الفطر! فإن اليهود يؤخرون»[١]، وقوله ﷺ: «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر»[٢].

فلهذا الدين خاصيته، وله تميزه بعيداً عن أرباب الشرك وأهل الديانات المحرفة، ولذا فقد كان ﷺ آية في الحرص على مخالفة أهل الكتاب والمشركين في الصيام وفي غيره.

وأمتنا اليوم - وهي تمر بمرحلة ضعف جليٍّ وتبعية ظاهرة واستلاب حضاري بارز - أحوج ما تكون إلى مفارقة الكافرين، وترك التشبه بهم فيما هو من خصائص دياناتهم وعقائدهم وعاداتهم، إذ الاستعلاء بثوابت الأمة والاعتزاز بقيمها - وما يتضمن ذلك من ازدراء للباطل الذي اشتملت عليه عقائد الفرق الغالبة اليوم في غرب الأرض وشرقها - هو مفتاح المجد وبوابة النصر والتمكين، بإذن الله عز وجل.

ويتأكد ذلك مع حملات التغرير التي يقوم بها في بلداننا طلائع الغرب وسهامه من بني جلدتنا، مما يحتم على كل فرد أن يعي ذلك، وأن يحذر من الشراك التي ينصبونها، وتحذير الأمة من شرها، نسأل الله سداده وثباته وتوفيقه.

---

(١) ابن ماجه (١٦٩٧)، وهو حديث صحيح.

(٢) مسلم (١٠٩٦).

❖ إكثاره ﷺ من العمل في رمضان آخر حياته:

وأبرز الدلائل على ذلك:

١- مضاعفته ﷺ للاعتكاف في آخر عمره، كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوماً»(١).

٢- مدارسته ﷺ مع جبريل القرآن مرتين، كما في حديث فاطمة - رضي الله عنها - وفيه: «أسرَّ إليَّ: إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين؛ ولا أُراه إلا حضر أجلي»(٢).

وقد جاء الأمران مجموعين في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه، وكان يعتكف كل عام عشراً فاعتكف عشرين في العام الذي قبض فيه»(٣).

فأحرى بمن عرف جلالة مولاه وعظيم حقه تعالى، وحقيقة نفسه وشدة فقره وذله واحتياجه لخالقه عز وجل، وأدرك أنه في هذه الدنيا في معبر امتحان ووقت اختبار، وأن دار المقامة هي في الدار الأخرى؛ بأن يعظم التأسي بالنبي ﷺ فيجتهد في الخير ويكثر من العمل، وبخاصة متى مضت به السنين، فقرب الرحيل وحان الوصول إلى المثوى الأخير في هذه الدار الفانية،

---

(١) البخاري (١٩٠٣).

(٢) البخاري (٣٦٢٤).

(٣) البخاري (٤٩٩٨).

نسأل الله العون والمعافاة الدائمة.

تلك معالم بارزة وأحوال مضيئة في استثمار الحبيب ﷺ لموسم عظيم مبارك في صون أشرف علاقة في حياة الإنسان، وتحقيقه لغاية المحبة لمولاه - عز وجل - بقيامه بأمره ورعايته لدينه وتكميله لطاعته.

إنها نبراس لسالك صراط الله المستقيم، من حاد عنها اضطرب أمره وتفرق شأنه، ولم يزل في عوج ولُجَج حتى يبغي طريقاً إلى سنة النبي ﷺ، فيلزمه ويعضّ عليه بالنواجذ حتى يلقى الله تعالى.

فاللهم وفقنا لطاعتك، وجنبنا معصيتك، وثبتنا على دينك، وارزقنا تمام التأسي بنبيك ﷺ بمنٍّ منك وإحسان، يا أرحم الراحمين.

الفصل الثالث:

أحوال النبي ﷺ مع زوجاته في رمضان



أحوال النبي ﷺ مع زوجاته في رمضان

من تتبَّع حاله ﷺ مع زوجاته - رضي الله عنهن - في رمضان علم مدى التوازن الجمِّ الذي كان محققاً له ﷺ في حياته، إذ كان ﷺ كما وصف نفسه فقال: «إنَّ أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»[١]، وقال: «قد علمتم أني أتقاكم لله وأصدقكم وأبركم»[٢]، وقال: «أنا أتقاكم لله وأعلمكم بحدود الله»[٣]، وقد بان بعض ذلك من خلال ما سبق في أحواله ﷺ مع ربه - عز وجل - في رمضان.

وفي المقابل كان ﷺ مع نسائه كما وصف نفسه فقال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[٤].

وستعمل هذه السطور على تجلية خيريته ﷺ لنسائه في رمضان، وإظهار عشرته الحسنة معهن فيه؛ ليتأسى به العابدون ويسير على هداه السائرون، وذلك من خلال الفقرات التالية:

❖ **تعليمه ﷺ لهن:**

وهذا بيِّن لمن تأمل الأحاديث الواردة في حاله ﷺ في رمضان، إذ يجد أن كثيراً منها من روايتهن رضي الله عنهن، سواء أشاركهن أحد الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - في تلقِّيها عنه ﷺ، أم لم يشاركهن أحد.

---

(١) البخاري (٢٠).

(٢) البخاري (٧٣٦٧).

(٣) أحمد: ٥/ ٤٣٤، واللفظ له، ومسلم (١١١٠).

(٤) الترمذي (٣٨٩٥)، وهو حديث صحيح.

وكل ذلك دليل على حجم العناية التي أولاها ﷺ لتعليم نسائه وإرشادهن.

ولعل من الأحاديث الدالة على ذلك:

حديث عائشة - رضي الله عنها - حين قالت: يا رسول الله! أرأيت إن علمت أي ليلةٍ ليلة القدر.. ما أقول فيها؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني»[١].

وقولها - رضي الله عنها - للمرأة التي سألتها: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فقالت: «كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة»[٢].

وفي هذا الحديث: ضرورة تعظيم النصوص الثابتة والتسليم لها، وأن ذلك من أصول الدين، ومن الصفات اللازمة للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١]، وقال سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

وقد تجلى هذا السمت كثيراً في حياة الصحابة رضي الله عنهم، فقد رأى عبد الله بن معفل - رضي الله عنه - «رجلاً من أصحابه يخذف، فقال له:

---

(١) مسلم (١١٤٧).

(٢)مسلم (٣٣٥).

لا تخذف، فإن رسول الله ﷺ نهى عن الخذف أو كان يكره الخذف، ثم رآه بعد ذلك يخذف، فقال له: أحدثك عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن الخذف أو كره الخذف، وأنت تخذف، ولا أكلمك كذا وكذا»(١)، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «تمتع النبي ﷺ، فقال عروة: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال: «أراهم سيهلكون، أقول: قال النبي ﷺ، ويقولون: نهى أبو بكر وعمر»(٢).

ومما رواه أزواج النبي ﷺ، حديث عائشة رضي الله عنها: «أن بلالاً كان يؤذن بليل، فقال رسول الله ﷺ: كلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم، فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر»(٣).

وفي هذا الحديث دليل على مسألتين:

الأولى: أن الأصل في أذان الفجر أنه إخبار بطلوع الفجر، وأنه لا يجوز الأكل عقب شروع المؤذن فيه، إلا لمن علم بأن مؤذنه يتقدم في أذانه عن طلوع الفجر، أما التوسع مطلقاً تحت طائل أن المرء لم يتيقن طلوع الفجر

---

(١) البخاري (٥١٦٢).

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر(٢٣٨١).

(٣) البخاري (١٨١٩)، وجاء عند ابن حبان (٣٤٧٣)، من حديثها رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ قال: إن ابن أم مكتوم يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذن بلال، وكان بلال يؤذن حين يرى الفجر»، وإسناده قوي، والمشتهر أن أذان بلال هو الأول، لا أذان ابن أم مكتوم، وانظر: مسلم (١٠٩٢)، ورواية ابن حبان توهم معارضة ذلك، «وليس كذلك؛ لأن المصطفى ﷺ جعل الليل بين بلال وبين ابن أم مكتوم نوباً؛ فكان بلال يؤذن بالليل ليالي معلومة؛ لينبه النائم، ويرجع القائم، لا لصلاة الفجر، ويؤذن ابن أم مكتوم في تلك الليالي بعد انفجار الصبح لصلاة الغداة، فإذا جاءت نوبة ابن أم مكتوم كان يؤذن بالليل ليالي معلومة كما وصفنا قبل، ويؤذن بلال في تلك الليالي بعد انفجار الصبح لصلاة الغداة، من غير أن يكون بين الخبرين تضاد أو تهاتر» اهـ. من صحيح ابن حبان: ٨ / ٢٥٢ - ٢٥٣.

بأذان المؤذن فخلاف الأصل، والواقع فيه معرضٌ صيامه للخطر، نسأل الله - تعالى - النجاة من عقوبته.

الثانية: عدم مشروعية ما هو موجود في بعض التقاويم وما يفعله بعض المؤذنين من تأخير أذان المغرب عن غروب الشمس بقليل، ومن تقدمة أذان الفجر عن طلوع الفجر الصادق تحوطاً، وهذا من البدع المنكرة والآثام العظيمة؛ لأن فاعله يحل للناس الصلاة قبل وقتها، ويوجب عليهم الإمساك في غير وقته، فليحذر مريد النجاة منه فإنه من التنطع في الدين الذي حذر منه النبي الكريم ﷺ بقوله: «هلك المتنطعون، قالها ثلاثاً»[(١)].

وليعلم بأن خير الهدي وأتمه هدي نبينا محمد ﷺ، وأن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وقد كان النبي ﷺ وصحابته الكرام يبادرون إلى الإفطار متى غلب على ظنّهم غروب الشمس من دون ما تكلف في التحري حتى في أيام الغيم، كما في حديث أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت: «أفطرنا على عهد النبي ﷺ يوم غَيْم، ثم طلعت الشمسُ»[(٢)]، نسأل الله الكريم الثبات والسلامة.

ومن تأمل اليوم في واقعٍ كثير من نساء أسرنا، بما في ذلك أُسر بعض العلماء والدعاة وجد جهلاً ظاهراً فيما لا يسع المرأة المسلمة جهله من أحكام الدين، وفيما عليه مدار أكثر عمل المرأة المسلمة من واجبات ومستحبات.

---

(١) مسلم (٢٦٧٠).

(٢) البخاري (١٨٥٨)، وانظر: مجموع فتاوى ابن عثيمين:١٩/ ٢٦٩.

ومع أن المسؤولية عن ذلك تقع بدرجة أساس على المرأة؛ لأنها المعنية بذلك لقوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»، إلا أنه لا يمكن بحال إغفال التقصير المفزع من أرباب الأُسر وأولياء الأمور في هذا الجانب، وهو داخل بلا شك في إطار تضييع الأمانة وعدم القيام بالمسؤولية الواجبة، ويكفي في التحذير الشديد من ذلك قوله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالرجل راع في بيته وهو مسؤول عن رعيته»[(١)]، وقال ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»[(٢)].

وحين نقارن في هذا الجانب واقع بعض أُسرنا بحال الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - نجد البون شاسعاً؛ إذ تجاوزوا تعليم النساء وتربيتهن على الخير إلى العناية بالصبيان، فعن الرُّبيِّع بنت معوذ بن عفراء - رضي الله عنها - قالت: «... أرسل رسول الله ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حول المدينة: من كان أصبح صائماً فليتم صومه، ومن كان أصبح مفطراً فليتم بقية يومه. فكنا بعد ذلك نصومه، ونُصوِّم صبياننا الصغار منهم إن شاء الله، ونذهب إلى المسجد فنجعل لهم اللعبة من العِهْن، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه إياه عند الإفطار»[(٣)].

وكثير منا اليوم يغفل عن هذا الجانب، بل إن بعضهم ليمنع أولاده الصيام والقيام وبعض أعمال البر - مع رغبة الولد فيه - مخافة التعب عليه،

---

(١) البخاري (٨٥٣).

(٢) أحمد(٦٤٩٥)، وهو حديث صحيح لغيره.

(٣) مسلم (١١٣٦).

وهذا من الخطأ البين في حال أمن الضرر عليهم، والله أعلم.

فاللهم أعنا على القيام بواجب تفقيه نسائنا وسائر أهالينا بأحكام الدين، وتربيتهم على البر والتقوى، يا أكرم الأكرمين.

❖ معرفتهن - رضي الله عنهن - بحاله ﷺ:

وهذا أمر جلي، والدلائل على ذلك كثيرة، منها:

حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «... كان نبي الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا غلبه نوم أو وجع عن قيام الليل صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا صلى ليلة إلى الصبح، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان»[١].

وحديثها - رضي الله عنها - حين سئلت: «كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان؟ فقالت: ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعاً فلا تَسَلْ عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً فلا تَسَلْ عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً؛ فقلت: يا رسول الله، أتنام قبل أن توتر؟ قال: يا عائشة، إن عيني تنامان ولا ينام قلبي»[٢].

وحديثها - رضي الله عنها - في صلاته ﷺ في بعض ليالي رمضان، وفيه: «... وبات رسول الله ﷺ غير غافل، وثبت الناس مكانهم حتى خرج رسول الله ﷺ إلى الصبح»[٣].

---

(١) مسلم (٧٤٦).

(٢) البخاري (٢٠١٣).

(٣) أحمد(٢٦٣٠٧)، وهو حديث صحيح لغيره.

بل إن إخبارهن - رضي الله عنهن - بجانب من عشرتهن وما علمنه من حاله ﷺ كان طريق الأمة لمعرفة كثير من هديه ﷺ في رمضان، ومما يدل على ذلك:

حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شدَّ مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله»(١).

وحديثها وأم سلمة - رضي الله عنهما - قالتا: «إن كان رسول الله ﷺ لَيصبح جُنباً من جماع غير احتلام في رمضان ثم يصوم»(٢).

وحديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ يقبِّل بعض نسائه وهو صائم، قلت لعائشة: في الفريضة والتطوع؟ قالت عائشة: في كل ذلك، في الفريضة والتطوع»(٣).

وفي هذه المعرفة خير وفير؛ إذ فيها تعليم وتربية للأهل على البر وإعانة على التأسي والاقتداء به ﷺ، إضافة إلى ما تتضمنه من كسب القلوب ومراعاة المشاعر.

فأين أولئك الأخيار الذين يعيشون في جوانبهم الدعوية والعلمية والتعبدية في خفاء، وهم بعيدون كل البعد عن أسرهم وأهاليهم، نسأل الله - تعالى - أن يهدينا وإياهم سواء السبيل.

---

(١) البخاري (٢٠٢٤).

(٢) مسلم (١١٠٩).

(٣) ابن حبان (٣٥٤٥)، وهو حديث صحيح.

❖ **حثُّه ﷺ لهن على فعل الخير وإعانتهن:**

والحث هو الترغيب في الأجر وبيان الثمرة المترتبة على العمل، وهو أمر إضافي على التعليم، ثم تأتي الإعانة درجة تالية.

ومن الأحاديث الدالة على تلك الحال:

حديث علي - رضي الله عنه - : «أن النبي ﷺ كان يوقظ أهله في العشر الأواخر من رمضان»[١]، واهتمامه ﷺ بهذا الجانب من خلال هذا الحديث في غاية الوضوح؛ لأنه كان ﷺ معتكفاً في تلك الأثناء في مسجده، ولم يكن في منزله.

وحديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ يجاور في العشر الأواخر من رمضان، ويقول: تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان»[٢].

وحديث أبي ذر - رضي الله عنه - قال: «... ثم لم يصلِّ بنا حتى بقي ثلاثٌ من الشهر، وصلى بنا في الثالثة ودعا أهله ونساءه فقام بنا حتى تخوفنا الفلاح، قلت له: وما الفلاح؟ قال: السحور»[٣]، وفي رواية قال: «... ثم كانت الرابعة، فلم يقم بنا فلما بقي ثلاثٌ من الشهر أرسل إلى بناته ونسائه

---

(١) الترمذي (٧٩٥)، وهو حديث صحيح، وفي البخاري (٢٠٢٤) من حديث عائشة - رضي الله عنها -: «كان النبي ﷺ إذا دخل العشر... أيقظ أهله».

(٢) البخاري (٢٠٢٠).

(٣) الترمذي (٨٠٦)، وهو حديث صحيح.

وحشد الناس، فقام بنا حتى خشينا أن يفوتنا»[١].

وعن زينب ابنة أم سلمة - رضي الله عنهما - قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا بقي من الشهر عشرة أيام لم يذَرْ أحداً من أهله يطيق القيام إلا أقامه»[٢].

وهذه النصوص ونحوها ظاهرة الدلالة في جواز حضور النساء صلاة التراويح، «وبيوتهن خير لهن»[٣].

لكن حضور المسجد يتأكد في حق من لا تنشط على صلاتها في بيتها، وأنه لا يجوز لولي المرأة منعها من شهودها؛ لقوله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[٤]، إذا لم يصحب حضورها محظور، وأمنت الفتنة، وحافظت المرأة على الحجاب، وابتعدت عن التطيب ولباس الزينة، وما أجمل في هذا الباب وقوف الفاروق عمر - رضي الله عنه - عند حدود ربه تعالى، كما في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «كانت امرأة لعمر تشهد صلاة الصبح والعشاء في الجماعة في المسجد، فقيل لها: لم تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار؟ قالت: وما يمنعه أن ينهاني؟ قال: يمنعه قول رسول الله ﷺ لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[٥]، فاللهم ارزقنا معرفة شرعك، والوقوف

---

(١) النسائي (١٣٦٤)، وهو حديث صحيح.

(٢) قيام رمضان، للمروزي (٣١)، وهو حديث حسن لغيره.

(٣) أبو داود (٥٦٧)، وهو حديث صحيح.

(٤) البخاري (٨٥٨).

(٥) أبو داود (٥٦٧)، وهو حديث صحيح.

عند حدودك.

ومن هذه الآثار ندرك حكمة من حِكَم تعدد زوجات النبي ﷺ وكثرتهن - مع اشتغاله بأمر الأمة -؛ إذ كان ذلك جزءاً أساساً من عملية إرشاد الأمة وتعليمها الإسلام كافة بكل جوانبه الشمولية، ولم يكن جزء من ذلك ليتحقق لولا عنايته - عليه الصلاة والسلام - بتعليمهن: إرشاداً وتوجيهاً وإجابة وبياناً وترغيباً وترهيباً. وهذا فوق أنه منطلق دعوي مهم، فهو رعاية للمسؤولية الأولى، وحفظ لكيان البيت والأسرة من الغفلة والجهل والكسل.

وتقصير أولياء أمور الأسر في التربية وما يرتبط بها - من وعظ وتوجيه وتذكير وترغيب ونحو ذلك من الطرائق والأساليب - هو اليوم أكثر وضوحاً من التقصير في التعليم، يستوي في هذا الضعف الصلحاء وغيرهم، ولذا أُشرِبت نفوس كثير من فتياتنا الشبهات التي يبثها في أوساطهن من لا يريد للأمة عزاً، ولا للنساء عفة وتديناً، وتعلقت عامتهن بالشهوات المهلكة.

ومع أنه لا بد من تثمين الجهود الدعوية الموجهة للمرأة اليوم من الرجال والنساء أفراد ومؤسسات على حد سواء، إلا أن دور رب الأسرة سيبقى محورياً؛ نظراً لضخامة الاحتياج ومحدودية الجهود المبذولة، إضافة إلى طبيعة المرأة وخصوصية الأحكام الشرعية والأعراف المتعلقة بها في بيئاتنا الإسلامية.

فَحَيَّ على أسركم يا أتباع محمد ﷺ! فأمسكوا بحجزهن عن التقحم في جهنم، واعملوا على وقايتهن من ولوج نار وقودها الناس والحجارة، نسأل الله - تعالى - المعافاة والسلامة.

اللهم سلم لأمتنا أُسرها فإنها عماد مجتمعاتنا، واحفظ علينا نساءنا وفتياتنا، ووفقهن وأولياء أمورهن لما فيه رضاك والظفر بعفوك يا رب العالمين.

❖ إذنه ﷺ لهن بالاعتكاف معه:

يدل لذلك:

حديث عائشة - رضي الله عنها -: «أن رسول الله ﷺ ذكر أن يعتكف العشر الأواخر من رمضان، فاستأذنته عائشة فأذن لها، وسألت حفصة عائشة أن تستأذن لها ففعلت...»[(١)]، وفي رواية قالت: «فاستأذنته فأذن لي، واستأذنته حفصة فأذن لها»[(٢)].

ومن خلال هذا الاستئذان تتجلى لنا بصورة مشرقة القوامة المسؤولة، التي تحافظ على استقرار الأسرة المسلمة، وتعزز الاحترام وتعمق الاطمئنان والثقة المتبادلة بين أفرادها.

وفي إذنه ﷺ لهن بذلك دلالة ظاهرة على أن الاعتكاف ليس خاصاً بالرجال، بل يعم النساء أيضاً، لكنه مقيد بإذن أوليائهن بذلك، وأمن الفتنة عليهن، وضمان عدم خلوتهن بالرجال الأجانب؛ للأدلة الكثيرة في ذلك؛ ولأن درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح[(٣)]، والله أعلم.

---

(١) البخاري (٢٠٤٥).
(٢) عبد الرزاق (٨٠٣١)، وهو حديث صحيح.
(٣) انظر: قيام رمضان، للألباني: (٢٩).

❖ **قيامهن معه ﷺ ببعض العبادات:**

ومن ذلك:

١- **قيام الليل في بعض ليالي رمضان جماعة في المسجد**، يدل لذلك:
حديث أبي ذر - رضي الله عنه - وفيه: «ثم لم يصلِّ بنا حتى بقي ثلاث من الشهر، وصلى بنا في الثالثة، ودعا أهله ونساءه فقام بنا حتى تخوفنا الفلاح، قلت له: وما الفلاح؟ قال: السحور»[(١)].

٢- **الاعتكاف**، يدل لذلك:
حديث عائشة - رضي الله عنها - «أن النبي ﷺ اعتكف معه بعض نسائه وهي مستحاضة ترى الدم، فربما وضعت الطست تحتها من الدم»[(٢)].

وهذه المشاركة في الخير ما كانت لتحدث لولا العناية العميقة منه ﷺ بتربية زوجاته وأهل بيته، وحرصه على أن يكون سبباً في نجاتهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله - تعالى - بقلب سليم.

والواضح فيها أنه مشاركة بعيدة عن التباهي، ومبنية على الرغبة الذاتية ومراعية لظروف المرأة وتبدل أحوالها واختلاف ما يناسب امرأة عن أخرى من وجوه الإحسان وأعمال البر.

ولذا نجد مثلاً أن بعض أزواجه - رضي الله عنهن - لم يكن يعتكفن معه ﷺ في حياته، كما يدل لذلك: حديث صفية - رضي الله عنها - قالت: «كان

---

(١) الترمذي (٨٠٦)، وهو حديث صحيح.
(٢) البخاري (٣٠٩).

النبي ﷺ في المسجد وعنده أزواجه فرحن، فقال لصفية بنت حيي: لا تعجلي حتى أنصرف معك»[١].

وحديث عائشة - رضي الله عنها - «أن النبي ﷺ أراد أن يعتكف، فلما انصرف إلى المكان الذي أراد أن يعتكف إذا أخبية؛ خباء عائشة، وخباء حفصة، وخباء زينب، فقال: آلبر تقولون بهن؟ ثم انصرف، فلم يعتكف حتى اعتكف عشراً من شوال»[٢].

والشاهد منه أنه لم يضرب أخبية للاعتكاف إلا ثلاثٌ من أزواجه - رضي الله عنهن - ، أما بعد وفاته ﷺ فالظاهر اعتكافهن - رضي الله عنهن - بعده، يدل لذلك حديث عائشة - رضي الله عنها - «أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله، ثم اعتكف أزواجه من بعده»[٣]، والله أعلم.

وهذا يعني أن رب الأسرة مطالب بمراعاة اختلاف ميول أسرته ورغباتهن، إذ قد يُفتح لبعض أهل البيت في الصلاة، وأخريات في الاعتكاف، وأخريات في القراءة والذكر، وأخريات في التعليم والدعوة.. وهكذا، وما لم يستطع أن يتكيف مع هذه الرغبات فلن يكون قادراً على تفعيل الطاقات وتوجيه القدرات نحو ما فُتح لها فيه، نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا البصيرة والفقه.

---

(١) البخاري (٢٠٣٨).

(٢) البخاري (٢٠٣٤).

(٣) البخاري (٢٠٢٦).

❖ **حسن عشرته ﷺ لهن:**

وهو شأنه ﷺ مع أزواجه - رضي الله عنهن - على الدوام، ولفعله ﷺ ذلك في رمضان شواهد، منها:

١- مراعاته ﷺ لهن وحرصه على استقرار الأسرة وديمومتها في أجواء مستقرة بعيدة عن الرياء والسمعة والتشاحن والبغضاء؛ إذ ترك الاعتكاف في سنة خشيةً على نسائه من أن يقع بينهن أو في نفوسهن شيء، يدل لذلك حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان النبي ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان؛ فكنت أضرب له خباء فيصلي الصبح ثم يدخله، فاستأذنت حفصة عائشة أن تضرب خباء فأذنت لها فضربت خباء؛ فلما رأته زينب بنت جحش ضربت خباء آخر؛ فلما أصبح النبي ﷺ رأى الأخبية، فقال: ما هذا؟ فأُخْبِر فقال النبي ﷺ: آلبر تُرَونَ بهن؟ فترك الاعتكاف ذلك الشهر، ثم اعتكف عشراً من شوال»[(١)].

قال ابن حجر: «وكأنه ﷺ خشي أن يكون الحامل لهن على ذلك المباهاة والتنافس الناشئ عن الغيرة؛ حرصاً على القرب منه خاصة، فيخرج الاعتكاف عن موضوعه»[(٢)].

وقال الباجي: «ويحتمل أن يكون انصرف عن ذلك لما أراد من صرف جميعهن، فرأى انصرافه أقرب لاستصلاحهن وتطييب نفوسهن، وكان بالمؤمنين رحيماً»[(٣)].

---

(١) البخاري (٢٠٣٣).
(٢) فتح الباري، لابن حجر: ٤/ ٣٢٤.
(٣) المنتقى للباجي: ٢/ ٨٣.

ونحن في وقت صرنا نرى بعض الصالحين يشتغلون في رمضان ببعض القربات كالعمرة والقيام والاعتكاف، ويتركون أهاليهم من غير توجيه ولا متابعة مما ينشأ عنه مفاسد عظيمة، فهلا تأسّى مَنْ هذه حاله بالنبي ﷺ فترك إتيان بعض القرب المستحبة التي يحول الانصراف عنها وتركها بين الأسرة وبين الانغماس في مهاوي الردى وبحور الشهوات، فإن الخير كل الخير في ذلك.

٢- **إشراكه ﷺ لهن في اعتنائه بمظهره وتنظيفه لجسده**، يدل لذلك حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان النبي ﷺ إذا اعتكف يدني إليّ رأسه فأرجله، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان»(١)، وفي رواية: «وكان يخرج رأسه إليّ وهو معتكف فأغسله وأنا حائض»(٢).

ولست أدري ما هو أجمل وأحسن وأكثر تعميقاً للمودة بين زوج وزوجة من فعله ﷺ هذا.

٣- **تقبيله ﷺ لزوجاته ومباشرته لهن - رضي الله عنهن - وهو صائم**، يدل للتقبيل حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ يقبل في رمضان وهو صائم»(٣)، وفي حديثها قالت: «أهوى إلي رسول الله ﷺ ليقبلني فقلت: إني صائمة! قال: وأنا صائم، قالت: فأهوى إلي فقبلني»(٤).

---

(١) مسلم (٢٩٧).

(٢) البخاري (٣٠١).

(٣) مسلم (١١٠٦).

(٤) أحمد (٢٥٠٢٢)، وإسناده صحيح.

وفي حديث حفصة - رضي الله عنها - «أن النبي ﷺ كان ينال من وجه بعض نسائه وهو صائم»(١).

وجاء تقبيله حال الصيام عن أم سلمة (٢)، وأم حبيبة(٣)، رضي الله عنهما.

ويدل للمباشرة حديث عائشة - رضي الله عنها - «أن رسول الله ﷺ كان يباشر وهو صائم»(٤)، وفي رواية: «أن رسول الله ﷺ كان يباشر وهو صائم، ثم يجعل بينه وبينها ثوباً - يعني: الفرج -»(٥)، وحديثها - رضي الله عنها - حين سألها الأسود ومسروق: أكان رسول الله ﷺ يباشر وهو صائم؟ قالت: «نعم، ولكنه كان أملككم لإِرْبِه»(٦).

وهذا يدل على أن الصائمين في شأن المباشرة والقبلة ليسوا سواء، فمن كان مالكاً لنفسه جاز له ذلك؛ كما كان النبي ﷺ يفعل، ومن كان غير مالك لنفسه، ويخشى على صيامه من أن يفسد بالإنزال أو بالتدرج بذلك إلى الجماع لم يَجُز له ذلك؛ سداً للذريعة، وصيانة للصيام من الفساد، ولأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ومن كان بين بين كره له ذلك، وكلٌّ مؤتمن على

---

(١) أحمد (٢٦٤٤٥)، وإسناده على شرط مسلم، وأصل الحديث في صحيح مسلم (١١٠٧).

(٢) البخاري (٣٢٢).

(٣) أحمد (٢٦٧٦٢)، وهو حديث صحيح من رواية شعبة، وقد خطّأه النسائي في الكبرى (٣٠٧١) فقال: «والصواب: شتير عن حفصة».

(٤) مسلم (١١٠٦).

(٥) أحمد (٢٤٣١٤)، وهو حديث صحيح.

(٦) مسلم (١١٠٦)، والإرب: الحاجة، وقيل: هو العضو، أرادت بملكه حاجته أو عضوه: قمعه لشهوته، انظر: الفائق في غريب الحديث، للزمخشري: ١/ ١٠.

صيامه، وأدرى بحال نفسه، والله أعلم.

والمقصود أن الصيام لا يحول بين الزوجين والقيام بشيء من رسائل المحبة ومظاهر التوادد من قبلة ونحوها، ما دام أن ذلك لا يوقع في محرم ولا يؤدي إلى ترك واجب، فحذارِ من الجفاء والتباعد، فإنها البذرة الحقيقية للاختلاف، والمعول الخطر لهدم كيان الأُسر وتفرقها.

لكن في المقابل لا بد من الإشارة إلى حال أناس انهمكوا مع أهاليهم وأولادهم فعلقوا قلوبهم بهم وشؤونهم، وتجاوبوا مع كماليات دنياهم على حساب ضروريات أخراهم! فصرفوهم عن كثير من الطاعات وأعمال البر وأبواب المعروف التي يمكنهم إتيانها والإسهام الفاعل في خدمة الأمة من خلالها، وقد وصف الله - تعالى - تلك الحالة بالعداوة، كما في قوله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: ١٤]، أي: أن تطيعوهم فيما يثبطونكم به عن الخير وترك طاعة الله عز وجل(١).

٤- مواقعته ﷺ لهن - رضي الله عنهن - في ليالي العشرين الأولى من رمضان، وتركه ﷺ لذلك في العشر الأواخر:

وهذا يدل على أن الإكثار من التعبّد لا يحول بين العبد والعناية بأداء حقوق الأسرة والقيام بواجب الأهل. **يشهد لذلك:**

حديث عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «قد كان رسول الله ﷺ يدركه

(١) انظر: جامع البيان، للطبري: ٢٣/ ٤٢٣.

الفجر في رمضان وهو جنب من غير حلم، فيغتسل ويصوم»[١].

وحديثها وأم سلمة - رضي الله عنهما - : «أن رسول الله ﷺ كان يدركه الفجر وهو جنب من أهله، ثم يغتسل ويصوم»[٢]، وفي رواية: «إن كان رسول الله ﷺ لَيصبح جنباً من جماع غير احتلام في رمضان، ثم يصوم»[٣].

والدليل على أن مواقعته ﷺ لزوجاته في رمضان كان خاصاً بالليالي العشرين الأولى من رمضان دون العشر الأواخر: حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله»[٤].

قال ابن حجر: «قوله: شد مئزره: أي: اعتزال النساء»[٥].

وقد جاء ذلك مصرحاً به عند البيهقي من حديث علي - رضي الله عنه - قال: «كان النبي ﷺ إذا كان العشر الأواخر من رمضان شمر واعتزل النساء»[٦]؛ ليتفرغ لإحياء الليل بالقيام والقراءة والتفكر والذكر باللسان والجنان والجوارح.

وهذا غاية التوازن، الذي قرره النبي ﷺ بفعله هنا؛ كما قرره بقوله حين بلغته مقولة سلمان الفارسي لأبي الدرداء - رضي الله عنهما - : «إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق

---

(١) مسلم (١١٠٩).

(٢) البخاري (١٩٢٦).

(٣) مسلم (١١٠٩).

(٤) البخاري (٢٠٢٤).

(٥) فتح الباري، لابن حجر: ٤/ ٣١٦.

(٦) السنن الكبرى، للبيهقي: ٤/ ٣١٤، وإسناده حسن.

حقه»، فقال ﷺ مقرراً لتلك المقولة العظيمة: «صدق سلمان»[(١)].

فأين عبَّادنا ودعاتنا من هذا التوازن، فإن الخير والتوفيق كله في هديه، والبلاء والشؤم كله في مخالفته والبعد عن نهجه.

٥- **زيارة نسائه ﷺ له في معتكفه وتبادله الحديث معهن ساعة**، يدل لذلك:

حديث علي بن الحسين عن صفية - رضي الله عنها - أنها «جاءت رسول الله ﷺ تزوره وهو معتكف في المسجد، في العشر الغوابر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة من العشاء، ثم قامت تنقلب...»[(٢)].

وفي رواية: «كان النبي ﷺ في المسجد وعنده أزواجه فرحن، فقال لصفية بنت حيي: لا تعجلي...»[(٣)].

فالاعتكاف لا يؤدي إلى القطيعة للأهل ولا إلى العزلة المطلقة عن محيط الأسرة. إذ لا يمنع المرء من القيام برعاية أهله، ولا يحول بينه وبين إتيان شيء من جوانب الرحمة ومظاهر حسن العشرة.

٦- **حمايته ﷺ لنسائه - رضي الله عنهن -**، يدل لذلك:

حديث صفية - رضي الله عنها - وفيه: «أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت تنقلب فقام النبي ﷺ معها يقْلِبُها»[(٤)].

---

(١) البخاري (٦١٣٩).
(٢) البخاري (٦٢١٩).
(٣) البخاري (٢٠٣٨).
(٤) البخاري (٢٠٣٥).

وفي رواية: «كان النبي ﷺ في المسجد وعنده أزواجه فرحن، فقال لصفية بنت حيي: لا تعجلي حتى أنصرف معك، وكان بيتها في دار أسامة فخرج النبي ﷺ معها»[١].

وفي أخرى: «أن صفية - رضي الله عنها - أتت النبي ﷺ وهو معتكف، فلما رجعت مشى معها»[٢].

فأين هذا من بعض من يرتدي أزياء التعبد؛ ثم تجد حظ أهل أحدهم من أخلاقه أسوأها، ومن أوقاته آخرها، ومن تفكيره فضلته، ومن اهتمامه ثمالته.. حتى ما عادوا يطمعون في عطفه وإحسانه، ولا يأملون في برِّه وشيء من خيره، ثم هو يرجو منهم غاية البر وتمام الإحسان؟! حقاً إنك لا تجني من الشوك العنب، ولا من العلقم حلاوة العسل!

❖ **خدمة نسائه ﷺ له:**

أولى الناس بخاصة الرجل أهله، وإيكاله شأنه الخاص إليهن يورث قرباً ومودة، ويزيد اللُّحمة.

وذلك ظاهر حال النبي ﷺ مع أهله في رمضان وفي غيره، ومن دلائل ذلك في هذا الشهر المبارك ما يلي:

١- **تغسيل زوجه ﷺ لرأسه وترجيلها لشعره وهو ﷺ معتكف**، كما في حديث هشام بن عروة عن عروة: «أنه سئل: أتخدمني الحائض أو تدنو مني

---

(١) البخاري (٢٠٣٨).

(٢) البخاري (٢٠٣٩).

المرأة وهي جنب؟ فقال عروة: كل ذلك عليَّ هين، وكل ذلك تخدمني، وليس على أحد في ذلك بأس، أخبرتني عائشة أنها كانت ترجِّل - تعني رأس رسول الله ﷺ - وهي حائض ورسول الله ﷺ حينئذٍ مجاور في المسجد، يدني لها رأسه وهي في حجرتها؛ فترجله وهي حائض»[١].

وحديث الأسود عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «وكان يخرج رأسه من المسجد وهو معتكف، فأغسله وأنا حائض»[٢].

٢- **ضرب زوجه الخباء له ﷺ في المسجد ليعتكف فيه**، يدل لذلك: حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان النبي ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان، فكنت أضرب له خباء فيصلي الصبح ثم يدخله»[٣].

٣- **ضرب زوجه الحصير له ﷺ ليصلي عليه وطيِّها له**، يدل لذلك حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان الناس يصلون في المسجد في رمضان أوزاعاً، فأمرني رسول الله ﷺ فضربت له حصيراً فصلى عليه»[٤]، وفي رواية: قالت: «فأمرني رسول الله ﷺ ليلة من ذلك أن أنصب له حصيراً على باب حجرتي - إلى أن قال: - اطوِ عنَّا حصيرك يا عائشة...»[٥].

---

(١) البخاري (٢٩٦).

(٢) البخاري (٢٠٣١).

(٣) البخاري (٢٠٣٣).

(٤) أبو داود (١٣٧٤)، وهو حديث صحيح.

(٥) أحمد(٢٦٣٠٧)، وهو حديث صحيح لغيره.

٤- **إيقاظ أهله ﷺ له**، كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - «أن رسول الله ﷺ قال: أُريت ليلة القدر، ثم أيقظني بعض أهلي فنسيتها، فالتمسوها في العشر الغوابر»[١].

فأين كثير من نسائنا الفضليات اليوم من هذا التعامل الراقي والخلق الراشد في العناية بالأزواج، وإعانتهم على الاستكثار من الخير والصعود في مراقي البر؟!

نعم؛ كم من امرأة عظيمة كانت وراء كل رجل عظيم ، تشد من أزره وتدفعه إلى بوابات السعادة والفلاح، وكم من تميُّز في البر واستمرار على إتيان جوانب المعروف كان وراءه سكن نفسي واستقرار أسري!

فاللهم أصلح نساءنا، واجعلهن نساء خيرات، وزوجات قانتات معينات على البر والتقوى، بمنّ منك وإحسان، يا أرحم الراحمين.

❖ زواجه ﷺ ببعض نسائه في رمضان:

قال ابن سعد في ترجمة أم المؤمنين زينب بنت خزيمة - رضي الله عنها -: «وكان تزويجه إياها في شهر رمضان على رأس أحد وثلاثين شهراً من الهجرة»[٢]، وقال الطبري: «وفي هذه السنة[٣] تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت

---

(١) مسلم (١١٦٦).
(٢) الطبقات، لابن سعد: ٨/ ١١٥.
(٣) أي: الرابعة، انظر: تاريخ الطبري: ٢/ ٥٣٨.

خزيمة أم المساكين من بني هلال في شهر رمضان، ودخل بها فيه»[١].

وقال ابن العماد: «وفي رمضان منها[٢] دخل ﷺ بحفصة، ودخل بزينب بنت جحش، وبزينب بنت خزيمة العامرية أم المساكين»[٣].

وهذا من أوضح الأدلة على الوسطية النبوية والتوازن الجميل ومراعاة الواقع والبعد عن مظاهر الزهد الزائف والرهبانية البائسة التي تتعارض والفطرة وكمال هذا الدين العظيم.

وبعد:

فإن من أوكد الواجبات بدايةُ رب الأسرة بعامة - والداعية بخاصة - بتعليم أهل بيته وقرابته؛ امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وإذا كان إنفاق الرجل على أهله أفضل من الصدقة على المسكين وأعظم منها أجراً[٤] فإن تعليمه وحسن معاملته لهم أفضل وأعظم أجراً من تقديم ذلك لغيرهم - مع الأهمية في كلٍّ -.

---

(١) تاريخ الطبري: ٨/ ٥٤٥.

(٢) أي: السنة الثالثة، انظر: شذرات الذهب، لابن العماد: ١/ ١١٨.

(٣) شذرات الذهب، لابن العماد: ١/ ١١٩، والمشهور أن زواجه ﷺ من زينب بنت جحش - رضي الله عنها - كان لهلال ذي القعدة سنة خمس من الهجرة، انظر: الطبقات، لابن سعد: ٨/ ١١٤، وزواجه من حفصة - رضي الله عنها - كان في شعبان على رأس ثلاثين شهراً قبل أحد، انظر: الطبقات لابن سعد: ٨/ ٨٣.

(٤) البخاري (١٤٦٦).

فنحن بحاجة ماسة إلى إحياء شعار: «ابدأ بمن تعـول»[(١)]، و«الأسـرة أولاً» مع بَعْثِ منهج التوازن والوسطية النبوية الـتي لا تهمـل جانبـاً هامـاً أو تعنـى بواجب على حساب آخر.

اللهم باعدنا عن الجهل والغفلة، وارزقنا الفقه في الدين، وبصّـرنا بهـدى سيد المرسلين، يا ودود يا رحيم.

---

(١) البخاري (١٤٢٦).

الفصل الرابع:

أحوال النبي ﷺ مع أمته في رمضان



أحوال النبي ﷺ مع أمته في رمضان

حال النبي ﷺ مع أمته في رمضان هو جزء لا يخرج عن الصورة العامة لهديه ﷺ معها في سائر العام، والتي أجملها ربنا - تعالى - بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

مع مزيد توجيه وتعليم فيما يخص رمضان، وتحضيض على استثمار الموسم والاستكثار من أعمال البر.

والمتأمل في سيرته ﷺ يرى بجلاء أنه قد تقلب مع صحابته الكرام - رضي الله عنهم - في هذا الشهر المبارك بين أحوال عدة، وصور رائعة من الرعاية والتزكية، والتي تمتلئ بالحنان والرحمة، وتجود بالرفق والرأفة، والحرص على السعادة والاستقرار في هذه الحياة الدنيا، والظفر بالنجاة حين ملاقاة الله - تعالى - والوقوف بين يديه - سبحانه - في الآخرة.

ويمكن إجمال أبرز معالم ذلك فيما يلي:

❖ تعليمه ﷺ لأصحابه:

التعليم مهمة الأنبياء وأتباعهم من المصلحين، كما قال ﷺ: «إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً»[١].

وقال الأسود بن يزيد: «أتانا معاذ بن جبل اليمن معلماً وأميراً»[٢].

وكتب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى أهل الكوفة: «إني قد بعثت عماراً أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً»[٣].

فالتعليم مهمة شريفة عليَّة الرتبة، بها يرتفع شأن صاحبها، ويعظم أجره، ويزيد برُّه، ويعم خيره، ويبقى ذكره... وقد طبقها النبي ﷺ غاية التطبيق وأكمله قولاً وفعلاً حتى شهد له أصحابه الكرام بذلك، فعن معاوية بن الحكم - رضي الله عنه - قال واصفاً تعليمه ﷺ له: «فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فو الله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني...»[٤].

وتعليمه ﷺ أوضح من أن يستشهد له؛ إذ التعليم مكوِّن أساس في رسالته وهدف بعثته ﷺ، غير أن ذلك لا يمنع من إيراد شواهد رمضانية لتعليمه لصحبه الكرام - رضي الله عنهم -، ومن ذلك:

---

(١) مسلم (١٤٧٨).

(٢) البخاري (٦٧٣٤).

(٣) المعجم الكبير، للطبراني (٨٣٩٧).

(٤) مسلم (٧٣٥).

حديث سمرة بن جندب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يغرَّنَّ أحدكم نداء بلال من السحور، ولا هذا البياض حتى يستطير»(١).

وحديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من ها هنا، وأدبر النهار من ها هنا، وغربت الشمس فقد أفطر الصائم»(٢).

وحديث شداد بن أوس - رضي الله عنه - : «أن رسول الله ﷺ أتى على رجل بالبقيع وهو يحتجم وهو آخذ بيدي لثمان عشرة خلت من رمضان، فقال: أفطر الحاجم والمحجوم»(٣).

وحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أفطر في شهر رمضان ناسياً فلا قضاء عليه ولا كفارة»(٤)، وفي رواية: «من أكل ناسياً وهو صائم فليتم صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه»(٥).

---

(١) مسلم (١٠٩٤)، ومعنى يستطير: ينتشر ضوؤه ويعترض في الأفق.

(٢) البخاري (١٨٥٣)، وانظر: مجموع فتاوى ابن عثيمين: ١٩/٣٠٨ - ٣١٠، وهذا الحديث ونحوه وقوله عز وجل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧] يدل على أن وقت الصيام من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وأن الصائم يلزمه الإمساك في النهار كله، طال أو قصر ما دام الليل والنهار يتعاقبان فيه خلال مدة اليوم المعروفة أربعاً وعشرين ساعة، فإن كان العبد في بلد لا يتعاقب فيه الليل والنهار خلال المدة المعروفة فإنه يَقْدِر لهما، بحسب مدتهما في أقرب بلد يكون فيه ليل ونهار يتعاقبان فيه خلال مدة اليوم الواحد، والله أعلم.

(٣) أبو داود (٢٣٦٩)، وهو حديث صحيح.

(٤) ابن خزيمة (١٩٩٠)، ابن حبان (٣٥٢١)، وإسناده حسن.

(٥) البخاري (٦٢٩٢).

وحديث أبي ذر - رضي الله عنه - قال: «... فقال: إن الرجل إذا صلى مع الإمام حتى ينصرف حُسِب له قيام ليلة»[١].

وحديث عبد الله بن أبي أوفى - رضي الله عنه -، والذي قرن فيه النبي ﷺ تعليمه بعمل، قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر في شهر رمضان، فلما غابت الشمس قال: يا فلان انزل فاجدح لنا، قال: يا رسول الله إن عليك نهاراً؟! قال: انزل فاجدح لنا، قال: فنزل فجدح فأتاه به فشرب النبي ﷺ، ثم قال بيده: إذا غابت الشمس من ها هنا، وجاء الليل من ها هنا فقد أفطر الصائم»[٢].

وحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من ذرعه القيء فليس عليه قضاء، ومن استقاء فليقضِ» [٣].

وللعلماء والدعاة في شهر رمضان المبارك فرص تعليمية ودعوية سانحة، حَريّة بالاغتنام من خلال بذل غاية الجهد في تعليم الناس وتفقيههم وتعريفهم حقيقة الإسلام والإيمان، واستثمار إقبالهم على المساجد في تعميق تدينهم، واستصلاح قلوبهم وأعمالهم، وتقوية استقامتهم ووقايتهم من سبل الإغواء، وتربيتهم على الخير وأعمال البر.

وفي وقتنا نرى أهل الباطل من أعداء الملّة ورواد الرذيلة يبذلون غاية الوسع في إذاعة باطلهم ونشر منكرهم بشتى الوسائل والطرق، بل إن

---

(١) أبو داود (١٣٧٥)، وهو حديث صحيح.
(٢) مسلم (١١٠١).
(٣) أحمد (١٠٤٦٨)، وهو حديث صحيح.

بعضهم ليمضي الشهور الطويلة في التخطيط والإعداد لإغواء الناس ونشر الفساد بينهم ومقاومة إقبالهم على الخير في هذا الشهر الكريم.

وهو ما يحتم على أهل الإصلاح والدعوة الولوج في هذا الجانب بنوع من الاحتراف والعمق: تخطيطاً وإعداداً، حتى يتمكنوا من تحسين العرض والتجديد في الوسائل؛ لينجذب الناس نحو الخير، ويشيع بينهم العلم والمعروف، ويحال بينهم وبين الوقوع في أوحال الرذيلة وبراثن الشهوات.

نسأل الله - تعالى - أن يقينا من مضلات الفتن، وأن يهدينا وأمتنا سواء السبيل، إنه رحمن رحيم.

❖ إرشاده ﷺ لأصحابه ووعظهم:

حيث وجه أصحابه الكرام - رضي الله عنهم - ووعظهم، ومن الأحاديث الدالة على ذلك:

حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأواخر من رمضان، فاتُّخِذ له فيه بيت من سعف، قال: فأخرج رأسه ذات يوم فقال: إن المصلي يناجي ربه عز وجل؛ فلينظر أحدكم بما يناجي ربه، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقراءة»[1].

والنفوس فطرت على الحاجة إلى التخول بالوعظ والتذكير، فما أجدر الدعاة والمصلحين بالمبادرة إلى استثمار هذه الأيام والليالي الفاضلة في تذكير الناس بعظمة ربهم وصفاته الحسنى عز وجل، وبحقيقة النفس وضعفها

---

(١) أحمد (٥٣٤٩)، وهو حديث صحيح.

واحتياجها، وبطبيعة هذه الدنيا وفنائها، وبعظمة الآخرة وبقائها، وبأن مصير العبد فيها إما إلى جنات عدن بمعية الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، أو إلى نار تلظى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

نسأل ربنا الرحمن عفوه وغفرانه، والنجاة من شديد عقابه.

❖ تحفيزه ﷺ لأصحابه على المبادرة بالعمل الصالح:

ببيان ثواب ذلك لهم، يدل لذلك:

حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - في الحث على الصيام، وفيه: «والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله - تعالى - من ريح المسك؛ يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي؛ الصيام لي وأنا أجزي به، والحسنة بعشر أمثالها»[١]، وفي لفظ: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي. للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه. ولخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك»[٢].

وحديث عثمان بن أبي العاص - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصيام جُنَّة من النار، كجُنَّة أحدكم من القتال»[٣].

---

(١) البخاري (١٨٩٤).

(٢) مسلم (١١٥١).

(٣) ابن ماجه (١٦٣٩)، وهو حديث صحيح.

وحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «الصيام جُنَّة، وحصن حصين من النار»[١].

وحديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من صام يوماً في سبيل الله بَعَّد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً»[٢].

وحديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد، فيقول الصيام: أي رب! إني منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه، فيُشَفَّعان»[٣].

وحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[٤].

وحديثه - رضي الله عنه - قال: «كان رسول الله ﷺ يرغب في قيام رمضان من غير أن يأمرهم فيه بعزيمة، فيقول: من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[٥]، وحديثه - رضي الله عنه - قال: «سمعت رسول الله ﷺ يرغب في قيام، يعني: رمضان»[٦].

---

(١) أحمد (٩٢١٤)، وإسناده حسن.

(٢) البخاري (٢٦٨٥).

(٣) شعب الإيمان، للبيهقي (١٩٣٨)، وهو حديث صحيح.

(٤) البخاري (١٩٠١).

(٥) مسلم (٧٥٩).

(٦) أحمد (٧٢٨١)، وإسناده صحيح.

وحديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -، وفيه: «... ثم قال: كنت أجاور هذه العشر، ثم قد بدا لي أن أجاور هذه العشر الأواخر، فمن كان اعتكف معي فليثبت في معتكفه، وقد أُريت هذه الليلة ثم أُنسيتها؛ فابتغوها في العشر الأواخر، وابتغوها في كل وتر»[١]، وفي رواية: «من كان اعتكف مع النبي ﷺ فليرجع، فإني أريت ليلة القدر، وإني نُسِّيتها، وإنها في العشر الأواخر في وتر»[٢].

وحديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - «أن رسول الله ﷺ خرج يخبر بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: إني خرجت لأخبركم بليلة القدر، وإنه تلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم؛ التمسوها في السبع والتسع والخمس»[٣].

وحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب عز وجل: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»[٤].

وحديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تبارك وتعالى عتقاء في كل يوم وليلة - يعني: في رمضان -، وإن لكل

---

(١) البخاري (٢٠١٨).

(٢) البخاري (٨١٣).

(٣) البخاري (٤٩).

(٤) أحمد (٨٠٤٣)، وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده.

مسلم في كل يوم وليلة دعوة مستجابة»[١].

وحديث زيد بن خالد الجهني - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من فطّر صائماً كان له مثل أجرهم، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً»[٢]، قلَّ ما يفطر به الصائم أو كثر، وهذا من رحمة الله تعالى وعظيم فضله وإحسانه.

وحديث ابن عباس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ:«عمرة في رمضان تقضي حجة معي»[٣].

وحديثه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ:«إن لله عند كل فطر عتقاء، وذلك في كل ليلة»[٤].

وتحفيزه ﷺ هذا دليل على حرصه على ما ينفع صحبه الكرام رضي الله عنهم، وعلى أن النفوس مهما بلغت من الكمال والمسابقة في الخيرات لم تستغنِ عن النصح والتوجيه: ترغيباً وترهيباً.

فالوعظ أسلوب نبوي كريم يحتاج إليه كل أحد، لكن بأسلوب حكيم يتحين فيه الواعظ المكان والزمان المناسبين، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه:« كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا»[٥]، أي: يتعهدنا بالتذكير مراعياً أوقات نشاطنا ولا يفعل ذلك دائماً.

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب (١٠٠٢)، وعزاه للبزار، وقال الألباني: صحيح لغيره.

(٢) ابن ماجه (١٧٤٦)، وهو حديث صحيح.

(٣) البخاري (١٧٧٧)، ومسلم (٢٢٨٩).

(٤) ابن ماجه (١٦٤٣)، وهو حديث حسن.

(٥) البخاري (٦٨).

وقد كان بعض العلماء الأوائل أرباب مواعظ عظيمة كالحسن البصري وابن الجوزي ونحوهما، حتى إن الإمام أحمد قال: « ما أحوج الناس إلى قاص صدوق»[1].

وفي وقتنا أفرط قوم في ذلك فصار حديثهم لا يكاد يخرج في رمضان ولا في غيره عن طريقة الوعظ! بأسلوب ضعيف، وطريقة ركيكة حتى أَلِفته النفوس فملَّته.

وفرّط آخرون فصار حديثهم جافاً غليظاً لـمَّا أهملوا خطاب القلوب وتحريك العاطفة، في الوقت الذي أهمل فيه الأولون خطاب العقل وتحريك الفكر.

ومنهج القرآن الكريم وسط بين هذين الطرفين «الوعظ ومخاطبة العقل»، فليكن لأتباعه منهجاً، ولدعاته ديدناً.

❖ إفتاؤه ﷺ لهم:

حيث أجاب من سأله من أصحابه رضي الله عنهم، ولم يعاتب من أذنب وجاء تائباً مستفتياً:

ومن الدلائل على ذلك:

---

(١) تلبيس إبليس، لابن الجوزي: ١٥٠.

حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - «أن رجلاً وقع بامرأته في رمضان، فاستفتى رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: هل تجد رقبة؟ قال: لا، قال: وهل تستطيع صيام شهرين؟ قال: لا، قال: فأطعم ستين مسكيناً»[١].

وفي رواية عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «أتى رجل إلى رسول الله ﷺ في المسجد في رمضان، فقال: يا رسول الله! احترقت احترقت، فسأله رسول الله ﷺ ما شأنه؟ فقال: أصبت أهلي، قال: تصدق، فقال: والله يا نبي الله ما لي شيء وما أقدر عليه، قال: اجلس، فجلس فبينا هو على ذلك أقبل رجل يسوق حماراً عليه طعام، فقال رسول الله ﷺ: أين المحترق آنفاً؟ فقام الرجل فقال رسول الله ﷺ: تصدق بهذا، فقال: يا رسول الله، أغيرنا؟! فوالله إنا لجياع ما لنا شيء، قال: فكلوه»[٢].

ومنها: حديث سلمة بن صخر الأنصاري - رضي الله عنه - قال: «كنت رجلاً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤتَ غيري، فلما دخل رمضان تظاهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان، فَرَقاً من أن أصيب منها في ليلتي فأتتابع في ذلك إلى أن يدركني النهار وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينما هي تخدمني ذات ليلة إذ تكشف لي منها شيء فوثبت عليها، فلما أصبحت غدوت على قومي فأخبرتهم خبري فقلت: انطلقوا معي إلى رسول الله ﷺ فأخبره بأمري، فقالوا: لا والله لا نفعل، نتخوف أن ينزل فينا قرآن أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقى علينا عارها، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك، قال: فخرجت

---

(١) مسلم (١١١١).

(٢) البخاري (١٩٣٥)، ومسلم (١١١٢) واللفظ له.

فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته خبري، فقال: أنت بذاك؟ قلت: أنا بذاك، قال: أنت بذاك؟ قلت: أنا بذاك، قال: أنت بذاك؟ قلت: أنا بذاك، وها أنا ذا، فأمْضِ فيَّ حكم الله فإني صابر لذلك، قال: أعتق رقبة، قال: فضربت صفحة عنقي بيدي فقلت: لا، والذي بعثك بالحق لا أملك غيرها، قال: صم شهرين، قلت: يا رسول الله، وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام؟ قال: فأطعم ستين مسكيناً، قلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحْشَى، ما لنا عشاء! قال: اذهب إلى صاحب صدقة بني زُرَيق فقل له: فليدفعها إليك، فأطعم عنك منها وسقاً ستين مسكيناً، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك، قال: فرجعت إلى قومي فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة؛ أمر لي بصدقتكم فادفعوها إليَّ، فدفعوها إلي»[١].

لقد كان المستفتون يأتونه، فيسألونه ويحاورونه، وهم مطمئنون واثقون بأنهم نازلون على معلم كريم رحيم.

بل إنه ﷺ ليداعب بعضهم، ويسلي عنهم، كما ترى في هذا الشاهد الجميل الذي رواه عدي بن حاتم - رضي الله عنه - قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾، قال: أخذت عقالاً أبيض وعقالاً أسود فوضعتهما تحت وسادتي، فنظرت فلم أتبين، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فضحك، فقال: إن وسادك إذن لعريض طويل، إنما هو

---

(١) الترمذي (٣٢٩٩)، وهو حديث صحيح.

الليل والنهار»[١]، ولم يأمره النبي ﷺ بقضاء، فدل على أن الجهل بالحكم رافع لوجوب القضاء[٢].

وهذه المواقف وأشباهها في حياة المصطفى ﷺ والتي تجلى فيها هذا الجانب داعية لحَمَلَةِ رسالته أن تمتلئ قلوبهم رحمة؛ تورثهم رقة وبشاشة في التعامل مع المدعوين، ورفقاً بسائلهم، وشفقة على مذنبهم.

إنها مزية من الواضح في وقتنا أنها تضعف لدى بعض المنتسبين للعلم والدعوة والإصلاح، والذين يظنون أن المقصر لا يستحق إلا التوبيخ والتقريع والذم والإسقاط جزاء تقصيره، ويغيب عن أذهانهم هدي النبي ﷺ وصنيعه مع من واقَعَ زوجته في رمضان[٣]، ومع غيره كالذي بال في المسجد[٤]، وكالذي تكلم في الصلاة[٥]... بل حتى مع من طلب الإذن له بالزنى[٦]!

فالرفق والرحمة والإقبال على الشخص وحسن الاستماع إليه والتلطف في جوابه والبشاشة في وجهه.. مفاتيح امتلاك القلوب والتأثير فيها، وكسب

---

(١) البخاري (١٨١٧)، أبو داود (٢٣٤٩)، واللفظ له.

(٢) من تأمل في نصوص الشريعة المطهرة تجلى له أن مفطرات الصائم لا تفسد الصوم إلا بثلاثة شروط:

الأول: العلم، فإذا أتى المرء شيئاً من المفطرات جاهلاً فلا شيء عليه، سواء أكان جهله بحكم كون الشيء مفطراً ففعله، أم جاهلاً بالوقت؛ كأن يظن أن وقت الفجر لم يدخل فأكل وشرب.

الثاني: ذكر الصيام، فمن نسي كونه صائماً لم يفسد صومه، وإن وجب على من حوله تذكيره.

الثالث: الاختيار، فمن أكره أو لم يتقصد الفطر لم يفسد صومه. انظر: مجموع فتاوى ابن عثيمين: ١٩/ ٢٧٧ - ٢٨١.

(٣) البخاري (٦٨٢٢).

(٤) البخاري (٢٢٠).

(٥) مسلم (٥٣٧).

(٦) أحمد ١ / ٢٢٢، وإسناده صحيح.

المشاعر وصياغتها.

فما أجدر العلماء الربانيين والدعاة المصلحين أن يعنوا بها لتتحقق غايتهم في تبصير الخلق وهدايتهم وردّهم رداً جميلاً إلى دين الله عزّ وجلّ، من أوسع بابٍ وأقصر طريق.

ويتأكد هذا الجانب في شهر رمضان المبارك، حين يقبل عامة الناس على المساجد، وتكثر أسئلتهم عن أحكام الصيام والزكاة والاعتكاف، وعن بقية أحكام الشرع، وعمَّا اقترفوه من الموبقات والذنوب، نسأل الله - تعالى - ستره وعفوه.

إن هؤلاء السائلين يفتقرون إلى قلوب حانية وأيدٍ رقيقة تمسح موضع الداء بلطف، وتعالجه برفق، وتخفف المصاب، حتى يظهر للمخطئ العوار فلا يعود إليه، والصواب فيتشبث به ولا يفارقه؛ طاعة لله - عزّ وجلّ - واستقامة على أمره.

ومن إفتائه ﷺ في شأن رمضان والصيام أيضاً:

حديث عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنهما - «أنه سأل رسول الله ﷺ أيقبل الصائم؟ فقال له رسول الله ﷺ: سل هذه «لأم سلمة»، فأخبرته أن رسول الله ﷺ يصنع ذلك، فقال: يا رسول الله! قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال له رسول الله: أما والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له»[1].

---

(١) مسلم (١١٠٨).

وحديث ضمرة بن عبد الله بن أنيس عن أبيه - رضي الله عنه - قال: «كنت في مجلس بني سلمة وأنا أصغرهم، فقالوا: من يسأل لنا رسول الله ﷺ عن ليلة القدر؟ وذلك صبيحة إحدى وعشرين من رمضان، فخرجت فوافيت مع رسول الله ﷺ صلاة المغرب، ثم قمت بباب بيته فمر بي فقال: ادخل، فدخلت فأُتي بعشائه فرآني أكفُّ عنه من قِلَّتِه، فلما فرغ قال: ناولني نعلي، فقام وقمت معه، فقال: كأن لك حاجة؟ قلت: أجل، أرسلني إليك رهط من بني سلمة يسألونك عن ليلة القدر، فقال: كم الليلة؟ فقلت: اثنتان وعشرون، قال: هي الليلة، ثم رجع فقال: أو القابلة - يريد ليلة ثلاث وعشرين - »[1].

وما روي عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: «جاء أبيُّ بن كعب إلى النبي ﷺ فقال:..ثمَّ يا رسول الله كان مني الليلة شيء في رمضان، قال: وما ذاك يا أُبيّ؟ قال: نسوة في داري قلن: إنا لا نقرأ القرآن فنصلي بصلاتك، قال: فصليت بهن ثماني ركعات ثم أوترت، قال: فكان شبه الرضى، ولم يقل شيئاً»[2].

وهذا غيض من فيض.

وأمتنا وهي تعيش رغبة عميقة في التدين مشوبة بكثير من صور الجهل ومظاهره، لدى فئام كثيرة من أبناء الأمة، وبغفلة لدى بعض أبنائها.. مطالبٌ علماؤها بأن يتصدروا للناس، فيبصروهم بأحكام الشرع برفق وتبسط،

---

(١) أبو داود (١٣٧٩)، وهو حديث صحيح.

(٢) ابن حبان (٢٥٤٩)، صححه ابن حبان، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٧٤): وإسناده حسن، وفي سنده كلام.

ويردوهم إلى سواء السبيل ببشاشة وحسن جواب، ولا يجعلوا الفرصة مواتية أمام أهل البدع والأهواء وأنصاف المتعلمين للتفرد بقيادة الأمة وتوجيهها، وبخاصة أن عامة الأمة افتقدت الحدود الفاصلة بين العالم وشبه الجاهل، وبين الغيور الصادق وصاحب الهوى الكاذب، مما يعظم المسؤولية ويزيد من فداحة الخطر.

فهل سنرى من علمائنا الربانيين ودعاتنا المخلصين مزيداً من الجهد في بذل العلم وإشاعة المعروف حتى لا تعم الغفلة وتشيع الجهالة، وحتى لا يجيء يوم يندم فيه أهل الغيرة، ولكن بعد فوات الأوان وخراب الديار.

ومن المهم في هذا السياق: تذكير طلبة العلم بأن من تمام التأسي بالنبي ﷺ الحذر من الجنوح في الفتيا نحو التشدد بداعي الاحتياط؛ إذ تحليل الحرام كتحريم الحلال، وإيجاب ما لم يجب كإسقاط ما وجب.. أو نحو التساهل وعدم إعمال النصوص بداعي الرفق بالناس ورحمتهم، فإن الاحتياط كل الاحتياط، والرفق كل الرفق في موافقة الشرع واتباع ما دلت عليه نصوص الوحيين، رآه المرء شدة أو تخفيفاً.

وتذكير جيل صحوتنا المبارك - ذكوراً وإناثاً - بضرورة الحذر من التجرؤ على الفتيا في مسائل لم يمتن عودهم العلمي فيها بعد، وما دام أنهم لم يستكملوا النظر في الأدلة ولم يمتلكوا أدوات الترجيح بينها عند اختلافها، فإن ذلك مدعاة لإهلاك النفس وإضلال الخلق والقول على الله - تعالى - بلا علم.

نسأل الله - عز وجل - أن يرزقنا الغيرة على دينه وموافقة سنة نبيه ﷺ: علماً وعملاً ودعوة.

❖ إمامته ﷺ بالناس:

وهي حال شريفة له ﷺ سائر العام، ومن الدلائل على إمامته الناس في رمضان:

حديث عبد الله بن أنيس - رضي الله عنه - «أن رسول الله ﷺ قال: أُريت ليلة القدر ثم أنسيتها، وأراني صبحها أسجد في ماء وطين. قال: فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين فصلى بنا رسول الله ﷺ فانصرف وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه»(١).

وحديث عائشة - رضي الله عنها - وفيه: «.. حتى خرج لصلاة الصبح، فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد ثم قال: أما بعد: فإنه لم يَخْفَ عليَّ مكانكم، لكني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها»(٢).

ولم تكن إمامته ﷺ للناس خاصة بالصلاة المكتوبة؛ إذ قد أَمَّ أصحابه - رضي الله عنهم - في قيام الليل في بعض ليالي رمضان، وما منعه من الاستمرار في ذلك إلا خشيته ﷺ من أن تفرض عليهم فيعجزوا عنها.

ومن الأحاديث الدالة على ذلك أيضاً:

حديث أبي ذر - رضي الله عنه - قال: «صمنا مع رسول الله ﷺ رمضان فلم يقم بنا شيئاً من الشهر حتى بقي سبع فقام بنا حتى ذهب ثلث الليل، فلما كانت السادسة لم يقم بنا، فلما كانت الخامسة قام بنا حتى ذهب شطر الليل، فقلت: يا رسول الله! لو نفلتنا قيام هذه الليلة؟ قال: فقال: «إن

---

(١) مسلم (١١٦٨).

(٢) البخاري (٩٢٤).

الرجل إذا صلى مع الإمام حتى ينصرف حسب له قيام ليلة، قال: فلما كانت الرابعة لم يقم، فلما كانت الثالثة جمع أهله ونساءه والناس، فقام بنا حتى خشينا أن يفوتنا الفلاح، قال: قلت: وما الفلاح؟ قال: السحور، ثم لم يقم بقية الشهر»[1].

وحديث عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ صلى في المسجد ذات ليلة فصلى بصلاته ناس، ثم صلى من القابلة فكثر الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ، فلما أصبح قال: قد رأيت الذي صنعتم فلم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم، قال: وذلك في رمضان»[2].

وكيف لا يكون ﷺ إماماً للمسلمين في الصلاة في هذا الشهر الفضيل وهو الهادي البشير، المبلغ عن رب العالمين، الحريص على هداية الناس وانعتاقهم من النار في الدار الآخرة حين العرض على الإله الجليل سبحانه.

إذ الإمامة موضع إرشاد ومنطلق توجيه وبوابة تأسٍّ، ومنفذ تربية، فأحرى بكل من لاحت له فرصة أن يكون إماماً وكان قادراً على تحمل المسؤولية والقيام بهذه الأدوار العظيمة أن لا يغفل عنها، وأن يحتسب الأجر في ذلك ويبذل وسعه في القيام بها حق القيام؛ رجاء ما عند الله - تعالى - والدار الآخرة، فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً.

---

(١) أبو داود (١٣٧٥)، وهو حديث صحيح.

(٢) البخاري (٧٢٩)، ومسلم (٧٦١) واللفظ له.

وبخاصة في ظل قلة الأئمة المعلمين، إذ اكتفى أكثرهم بحفظ القرآن وتحسين الصوت - وهو أمر حسن -، وقنع عامة الناس بذلك، فبهت دور الأئمة، فأولى لهم بمطالعة سيرته ﷺ، وأولى لغيرهم من الأكفاء بالمبادرة إلى الإمامة في رمضان، ولهم في ذلك غنائم كثيرة من البر والخير والمعروف في شهر الجود والإحسان.

فاللهم استخدمنا في طاعتك، واجعل عملنا صالحاً في رضاك، يا أكرم الأكرمين.

❖ خطبته ﷺ وحديثه عقب بعض الصلوات:

يدل لذلك حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه: «... فطفق رجال منهم يقولون: الصلاة! فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ حتى خرج لصلاة الفجر، فلما قضى الفجر أقبل على الناس ثم تشهد فقال: أما بعد: فإنه لم يخفَ علي شأنكم، ولكني خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها»(١).

وحديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: «اعتكفنا مع النبي ﷺ العشر من رمضان فخرج صبيحة عشرين فخطبنا وقال: إني أُريت ليلة القدر ثم أنسيتها»(٢)، وفي رواية: «فخطب الناس فأمرهم بما شاء الله»(٣).

فأحرى بمن تصدر للتوجيه من الخطباء والأئمة أن يبذلوا الوسع في هذا الجانب ويعتنوا بما يعرضون على الناس وبخاصة أننا في وقت بدأ يقلُّ فيه

---

(١) البخاري (١١٢٩)، ومسلم (٧٦١) واللفظ له.
(٢) البخاري (٢٠١٦).
(٣) النسائي (١٣٥٦)، وهو حديث صحيح.

تأثير المسجد، ويضعف فيه دور الإمام والخطيب؛ نظراً لتعدد مصادر التوجيه وصناعة سبل التأثير المنافسة لدوره.

وكل ما يخشى أنه باستمرار محدودية العناية بهذا الجانب، وقصور الطرح والتناول لدى كثير من الدعاة والأئمة أن تأتي على الدعاة أيام يكون فيها البون بينهم وبين عامة الناس شاسعاً والهوة ساحقة، وعندها يندب الأخيار واقعهم، ويكثرون من لوم أنفسهم، ولكن بعد أن تكون قد خربت البصرة، وضاع ما في القصعة، نسأل الله حفظه وعونه وتوفيقه.

إن المتأمل في سيرة الهادي البشير ﷺ من جهة، وفي واقعنا من جهة ثانية يلمس بجلاء أن دور المسجد في كثير من المواقع قد همش أو كاد، وأن البعد التوجيهي التربوي له في كثير من أقطار الإسلام قد ضعف بل إن لم يوشك على المغيب، وأن ذلك خلف تقصيراً ظاهراً في أوساط طلائع الخير ورواد الإصلاح، ومكراً كبَّاراً في أوساط معاول الشر ورواد الضلالة.

وعملية الإصلاح لا بد أن تأخذ وقتاً كافياً وجهداً مضنياً يقابل الوقت والجهد الذي كان في عمليات الهدم والإضعاف المتواصل، كما لا بد أن يتم الحفاظ على ما تبقى من مكتسبات وسبل انطلاقة ونجاح، وأن تُطوَّر تطويراً مواكباً للعصر يجعل منه منطلقاً لردم القصور واسترجاع ما فات.

ومع يقيننا بأن مستقبل الإسلام مشرق، وأن الغد نهار بإذن الله عز وجل، وعِلمنا بأن رمضان فرصة عظيمة لانطلاقة كبرى نحو الإصلاح المتزن والتغيير المنشود، فإنا ندرك بجلاء بأن ذلك لن يتحقق على أيدينا إلا من خلال التحلي بمزيد من الإخلاص والشعور العالي بالمسؤولية والاجتهاد وبذل الوسع في التعليم والتربية والبلاغ.

فاللهم ألهمنا الرشد، وجنبنا العجز والتواني، وقنا من أضاليل الفتن.

❖ **إرشاده ﷺ لهم إلى مراعاة حكم الصيام ومقاصده:**

وذلك من خلال العناية بطهارة النفس وتوقي الذنوب، حتى لا يكون يوم صوم المرء ويوم فطره سواء.

وهذا من أبرز ما يعتريه النقص الظاهر في كثير من الأوساط العلمية والتربوية.

وتأمل عناية النبي ﷺ بهذا الأمر في: حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه»[1].

وحديثه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر»[2]، وفي لفظ: «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الظمأ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر»[3].

وحديثه - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «الصيام جُنَّة فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم - مرتين - »[4]، وفي رواية: «لا تسابّ وأنت صائم، فإن سابَّك أحد، فقل: إني صائم، وإن

---

(١) البخاري (٦٠٥٧).

(٢) أحمد (٨٨٥٦)، وإسناده جيد.

(٣) الدارمي (٢٠١٤)، وهو حديث صحيح.

(٤) البخاري (١٨٩٤).

كنت قائماً فاجلس»[١].

وحديث أبي عبيدة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصوم جُنَّة ما لم يخرقها»، قال أبو محمد الدارمي: يعني بالغيبة[٢]، فمن لم يصن صومه عن محارم الله - عز وجل - فإن صومه ناقص، بل وقد فاته تحقيق الحكمة من مشروعيته.

والأمر أجلى من ذلك؛ لقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣].

ومن هذه النصوص وغيرها يتجلى أن الشارع الحكيم قصد من مشروعية صيام رمضان وما يكتنفه من أعمال وآداب أن يتعود المسلم على امتثال الأمر واجتناب النهي، وأن يتحلى بمزيد تقوى وخضوع وتسليم وانضباط بين يدي الله عز وجل، وأن يتطلع إلى رضى الله - تعالى - والظفر بجنته والنجاة من عقابه، ويتمرن على الصبر وإضعاف تسلط الشيطان عليه، وضبط نفسه وإحكام قيادها والحد من كبريائها لما فيه سعادتها في الدنيا والآخرة، وإنشاء الخوف من الله - عز وجل - ومراقبته في سويداء نفسه، وإنارة القلب ولمّ شعثه وإزالة قسوته وتخليته للذكر والتفكر، والتعرف إلى قدر النعم ومراعاة أحوال الضعفاء، وتقوية الأجساد ووقايتها من العلل والأمراض الجسمية والنفسية.

فالصوم - كما يقول الرازي -: «يردع عن الأشر والبطر والفواحش، ويهون لذات الدنيا ورياستها، وذلك لأن الصوم يكسر شهوة البطن والفرج،

---

(١) ابن خزيمة (١٩٩٤)، وإسناده صحيح.

(٢) الدارمي (١٧٧٣)، وإسناده حسن.

فمن أكثر منه هان عليه أمر هذين، وخفت عليه مؤونتهما، فكان رادعاً له عن ارتكاب المحارم والفواحش، ومهوناً أمر الرياسة في الدنيا، وذلك جامع لأسباب التقوى»[١].

والنفس - كما يقول أبو سليمان الداراني -: « إذا جاعت وعطشت صفا القلب ورقَّ، وإذا شبعت ورويت عميَ» [٢].

وعلى هذا فيتأكد على من يريد أن يتم صومه، ويكمل أجره، ويظفر بوقار الصوم أن يُعنى جداً بالتعرف على مقاصد الصيام وغاياته، وأن يحذر من الغفلة عنها وأن لا يكون عامة تعبده ناشئاً عن التقليد للواقع والمسايرة للمجتمع، فإنه مفتاح نقصٍ وبوابة خطر، يقول الشيخ الدوسري: «فإن لم يكن البشر واعين لحكمة التشريع الإلهي وثمراته في الدنيا قبل الآخرة، فإنهم لن يطبقوه على تمامه، أو على الوجه الصحيح» [٣].

كما يتأكد عليه أن يعنى بالقيام بالواجبات واجتناب المحرمات من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وأن يهتم بإعظام إخلاصه، وتمتين متابعته للنبي ﷺ، وأن يكثر من القرب والتمثل العملي بالآداب الشرعية الواجب منها والمستحب؛ ليرتقي في رتب الكمال وسلم الفضائل، يقول جابر - رضي الله عنه - : «إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمآثم، ودع أذى الخادم، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صيامك، ولا تجعل يوم

---

(١) مفاتيح الغيب، للرازي:٥/ ٧٠.

(٢) صفة الصفوة، لابن الجوزي:٤/ ٢٢٥.

(٣) صفوة الآثار والمفاهيم، للدوسري:٣/ ٨٢.

فطرك ويوم صيامك سواء»[١]، وكان أبو هريرة - رضي الله عنه - يقول: «الغيبة تخرق الصوم والاستغفار يرقعه، فمن استطاع منكم أن يجيء غداً بصومه مرقعاً فليفعل»[٢]، وعن طلق بن قيس قال: قال أبو ذر - رضي الله عنه -: «إذا صمت فتحفَّظ ما استطعت»، فكان طلق إذا كان يوم صومه دخل فلم يخرج إلا للصلاة[٣].

ومن تأمل في هدي النبي ﷺ في التربية وجد أنه يقوم على أساس رعاية أعمال القلوب وعدّها أساس التعبّد، ومن ثم تكميلها بأعمال الجوارح، يقول ابن القيم في هذا السياق في تعليق له على قول الله تعالى: «يدع شهوته وطعامه من أجلي»[٤]، ما نصه: «والعباد قد يطلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده فهو أمر لا يطلع عليه بشر، وذلك حقيقة الصوم»[٥].

ولذا فما هو حادث اليوم في كثير المحاضن التربوية من التوجه إلى العناية بإصلاح الظاهر والشدة فيه وإنكار المعاصي والذنوب الجليَّة، مع ضعفٍ بيّن في تناول أعمال القلب وذنوبه مع أنها الركيزة التي تورث صلاح الجوارح أو تعمق فسادها، كما قال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح

---

(١) ابن أبي شيبة (٨٨٨٠).
(٢) شعب الإيمان، للبيهقي (٣٦٤٤).
(٣) فضائل الأوقات، للبيهقي (٦٣).
(٤) مسلم (١١٥١).
(٥) زاد المعاد، لابن القيم: ٢/ ٢٩.

الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب»[١].. هو من الخطل العظيم؛ لأن أصل الاستسلام هو خضوع القلب وانكساره بكليَّته لله - تعالى - قولاً وعملاً، فإذا حصل هذا الخضوع القلبي المقترن بمحبة وتعظيم لله - تعالى - انقادت الجوارح تبعاً لذلك ولا بد.

وهذا يعني أنه من غير الممكن النجاح في إصلاح النفس ما لم يُعتنَ بمفارقة الذنوب مفارقة نابعة عن رغبة ذاتية وقناعة داخلية، وما لم يُولَ الباطن العناية التي يستحقها مقداراً وأهمية، حتى يتهيأ المرء للظفر بنظرة الرضى من الرب - تعالى - والفوز برحمته وإحسانه، كما قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٢].

ورمضان برحمات الله وهباته الواسعة فيه فرصة للتغيير في هذا الجانب، سواء أكان ذلك نابعاً من بُعْد ذاتي على مستوى الأفراد، أم نابعاً من بُعْد خارجي من خلال المبادرات الفردية أو الجهد الجماعي عبر مؤسسات التوجيه الخيرة المبثوثة في الأمة.

ولعل من أبرز ما يناقض تلك العناية النبوية العظمى بتحقيق مقاصد الصيام في هذا الشهر المبارك ما نراه في مجتمعاتنا من تضييع أناس للصلوات الخمس في أوقاتها بحجة الصيام، بل إن من الصوام من لا يصلي! ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، والصلاة قرينة الصيام والزكاة بل أفضل منهما، والمتهاون بها على خطر عظيم؛ لقوله ﷺ:«بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك

---

(١) البخاري (٥٢).
(٢) مسلم (٢٥٦٤).

الصلاة»[١]، وقوله ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»[٢]، والتي علق فيها النبي ﷺ الولوج في الكفر بترك الصلاة لا بجحودها[٣].

على أن بعضهم يفتي ببطلان صوم المرء إذا قصر في واجب أو حدثت منه زلة، وأن المرء - في ظنه - يفطر بكل معصية؛ لأن من عصى أثناء صيامه لم يأتِ بالصيام الذي أمره الله - تعالى - به[٤]، وهذا من الخطأ المبين، والصحيح أن الذنوب في وقت الصيام تنقص الأجر، بل قد تضيع الثواب، لكنها لا تبطل الصيام، ولا توجب على العبد القضاء.

نسأل الله - تعالى - أن يبصرنا بدينه، ويرزقنا متابعة خير المرسلين علماً وعملاً، ظاهراً وباطناً، إنه جواد كريم.

❖ حثه ﷺ لهم على تحري ليلة القدر:

كثرت النصوص عنه ﷺ في تحضيض الصحابة - رضي الله عنهم - على اغتنام هذه الليلة الشريفة والظفر بخيراتها، فنجده ﷺ مرة يجلي لهم فضلها، فيقول ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[٥].

---

(١) مسلم (٨٢).

(٢) الترمذي (٢٦٢١)، وهو حديث صحيح.

(٣) للعلامة ابن عثيمين في فتاويه ٢٠/ ٨٧ فتوى في هذا الموضوع، هذا نصها: «إن الذي يصوم ولا يصلي لا ينفعه صيامه، ولا يقبل منه، ولا تبرأ ذمته. بل إنه ليس مطالباً به ما دام لا يصلي؛ لأن الذي لا يصلي مثل اليهودي والنصراني، فما رأيكم أن يهودياً أو نصرانياً صام وهو على دينه، فهل يقبل منه؟ لا. إذن نقول لهذا الشخص: تب إلى الله بالصلاة وصم، ومن تاب تاب الله عليه».

(٤) انظر: المحلى، لابن حزم:٦/ ١٧٨.

(٥) البخاري (١٨٠٢).

ومرة يدلّهم على وقتها من الشهر، فيقول ﷺ: «تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان» [١].

ويدفعهم إلى العناية بأوتار العشر، فيقول ﷺ: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان» [٢].

وحين يخشى على بعضهم الضعف يوصيهم بالعناية بالسبع البواقي، فيقول ﷺ: «التمسوها في العشر الأواخر - يعني: ليلة القدر -، فإن ضعف أحدكم أو عجز فلا يغلبن على السبع البواقي» [٣].

ثم يبين ﷺ أن أوكد أوتار سبعها بالتحري: ليلة سبع عشرين، فقال ﷺ: «من كان متحريها فليتحرها ليلة سبع وعشرين، وقال: تحروها ليلة سبع وعشرين، يعني: ليلة القدر» [٤].

ولمثل هذا الحديث كان أبي بن كعب - رضي الله عنه - يحلف على أنها ليلة سبع وعشرين فيقول فيها: «والله إني لأعلمها، وأكثر علمي هي الليلة التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها، هي ليلة سبع وعشرين»[٥].

والظاهر أن هذا قد وقع في بعض السنين، فكانت ليلة القدر فيها ليلة سبع وعشرين، كما كانت في سنوات أخرى ليلة إحدى وعشرين، وفي أخرى ثلاث وعشرين.

---

(١) البخاري (٢٠٢٠).

(٢) البخاري (٢٠١٧).

(٣) مسلم (٢٨٢٢).

(٤) أحمد (٦٤٧٤)، وإسناده على شرط الشيخين.

(٥) مسلم (١٨٢٢).

ودليل إحدى وعشرين: حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «إني اعتكفت العشر الأول ألتمس هذه الليلة، ثم اعتكفت العشر الأوسط، ثم أُتيت فقيل لي إنها في العشر الأواخر فمن أحب منكم أن يعتكف فليعتكف، فاعتكف الناس معه، قال: وإني أُريتها ليلة وتر وأني أسجد صبيحتها في طين وماء، فأصبح من ليلة إحدى وعشرين وقد قام إلى الصبح، فمطرت السماء فوكف المسجد، فأبصرت الطين والماء، فخرج حين فرغ من صلاة الصبح وجبينه وروثة أنفه فيهما الطين والماء، وإذا هي ليلة إحدى وعشرين» [(١)].

ودليل ثلاث وعشرين: حديث عبد الله بن أنيس - رضي الله عنه - أنه ﷺ قال: «أُريت ليلة القدر ثم أنسيتها، وأراني صبحها أسجد في ماء وطين، قال: فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين فصلى بنا رسول الله ﷺ فانصرف، وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه» [(٢)].

وبهذا يتجلى لنا رجحان قول من قال بأن ليلة القدر مخفية، وأنها تتنقل بين أوتار العشر، رحمة من الله - تعالى - وإحساناً؛ ليكثر العمل، ويعظم الاجتهاد، ويبين الحريص من المتهاون.

والمطلع على أحوال الصحابة - رضي الله عنهم - يدرك أن أعظم ما حضهم به ﷺ على تحري هذه الليلة وبذل الوسع في إحيائها هو فعله ﷺ، والذي لم يره أحد مجتهداً في ليلة اجتهاده ﷺ في الليالي التي رأى أنها هي. وكيف لا يجتهد ﷺ

---

(١) البخاري (٢٠١٨)، ومسلم (٢٨٢٨) واللفظ له، وروثة الأنف: طرفه.

(٢) مسلم (٢٨٣٢).

ذلك الاجتهاد وهو في موضع التأسي والقدوة بالنسبة لأمته، وليلة القدر هي ليلة تنزل القرآن العظيم، والعمل فيها خير من ألف شهر، وقد أخبر الرب الكريم - سبحانه - بتنزل الملائكة والروح فيها، وأنها ليلة أمن وسلام؛ لكثرة ما يمن الله - تعالى - بها على عباده من خيرات ويعفو عنهم ويسلمهم من وزر الذنوب والآثام.

وحين نتأمل في واقع الناس اليوم نرى خيراً كثيراً وحرصاً أكيداً من معظم الناس على إحياء هذه الليلة الشريفة والظفر ببركاتها، لكن هذا الحرص سيزداد كثيراً حين ينبري العلماء الربانيون والدعاة المصلحون فيكونوا قدوة حسنة للناس في قيامها والاجتهاد في إحيائها بالعبادات التي ورد عن النبي ﷺ بها في مثل ذلك، كما سيزداد حسناً حينما يتم التخلص من بعض جوانب القصور وأعمال خلاف الأَولى، والتي تحول دون استثمار أمثل لهذا الموسم المبارك وتلك المنح العظيمة من المحسن الجواد عز وجل.

وليس المقام مقام التقصي في هذا الجانب، لكنه التنبيه على أبرز ما يحسن فعله مما يزيد من خضوع العبد لمولاه ويرفع من منزلته عند خالقه عز وجل، ومن ذلك:

١- التهيؤ لهذه الليلة الشريفة من كثير مِمَّن يعنى بإحيائها، وذلك من خلال إراحة الجسد في النهار، والتقلل جداً من الخلطة، وتوقي الزحام، وتبكير الخروج إلى المسجد لمن لم يكن معتكفاً، والتقلل من الطعام، وترتيب أوضاع من بقي من الأهل في المنزل؛ لتقل دواعي الخروج من المسجد، ومن ذلك: شراء حاجات العيد قبل العشر أو قبل دخول الشهر، حيث قلة الزحام وتوفر البضائع ورخص الأسعار، وفوق ذلك: توفير وقت الغنيمة وحفظه

عن الهدر في الأسواق.

٢- تطهير النفس وتخليتها من الذنوب والمعاصي من خلال توبة نصوح من كبائر الذنوب؛ لأن الذي قال ﷺ: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»(١)، هو نفسه ﷺ الذي كان يقول: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اُجتُنب الكبائر»(٢)، فعلّق تكفير الذنوب، والتجاوز عن خطل العبد بمفارقة الكبائر واقعاً أو حكماً من خلال أَوْبة مُسْتجمِعة لشروط القبول.

٣- العناية بملء القلب من محبة الله - تعالى - وتعظيمه ومشاهدة آلائه في الأنفس والآفاق، ومن مهابته وإدراك عظم الاضطرار إلى فضله وإحسانه، وعظيم نعيمه وشديد عقابه، وأنه لا مفر منه إلا إليه سبحانه، إذ كلما زاد العبد من كسر قلبه وإذلاله وزيادة إجلاله لخالقه ومعرفته به - سبحانه - كلما تهيأت له فرص القبول وإمكانية مضاعفة الأجور، فاحذر - يا موفق - من أن تكون ممن يعنى بعمل الظاهر، ولا حظٌ وافراً له من عمل الباطن، فإن ما قلَّتْ عنايتك به هو أساس الخلاص وركيزة النجاة. نسأل الله الكريم عونه وتوفيقه.

٤-العناية باختيار الأعمال والقرب الظاهرة والباطنة التي سيتودد العبد إلى الله - عز وجل - بها في هذه الليلة المباركة، إذ للطاعات رُتب، وقد يفتح

---

(١) أحمد (٩٤٥٩)، وإسناده على شرط الشيخين.

(٢) مسلم (٢٣٣).

على عبد في قربة من الخشوع والخضوع والانكسار وإظهار الافتقار للرب الجليل ما لا يفتح في أخرى، والموفق من رزق فقهاً ومزيد إخلاص وكبير تأسٍّ بالنبي الخليل ﷺ.

٥- تجنب تمضية الوقت في تحديد ليلة القدر، والتحقق من توفر علامتها، والجدل في ذلك؛ لأنه على حساب بذل الوسع في القرب. وتحصيل الليلة والظفر بأجورها غير مرتبط بتحديدها ومعرفة كونها تلك الليلة من تلك، بل كلما اجتمع للعبد فيها من خِلال التقوى، ومعالم الخضوع، والعناية بأعمال القلوب، وزيادة الذل، والاجتهاد في العمل؛ كان أهيأ لتحصيلها والظفر بإحسان الله - عز وجل - وامتنانه على عباده فيها.

فلا تكن ممن يشتغل بما لا يعنيه، ويدع ما يهمه وينجيه.

٦-الحرص على قيام بقية ليالي رمضان، وعدم التهاون فيها؛ لأن النبي ﷺ قال: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» [(١)].

ومع أنا لا ننكر تفاوت عمل النبي ﷺ في ليالي رمضان، كما يدل عليه حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت:«كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره» [(٢)]، بل حتى في ليالي العشر، كما يدل لذلك حديث أبي ذر - رضي الله عنه - قال: «صمنا مع رسول الله ﷺ رمضان فلم يقم بنا شيئاً من الشهر حتى بقي سبع، فقام بنا حتى ذهب ثلث الليل، فلما كانت السادسة لم يقم بنا، فلما كانت الخامسة قام بنا حتى ذهب شطر

---

(١) البخاري (٣٧).

(٢) مسلم (٢٨٤٥).

الليل، فقلت يا رسول الله: لو نفلتنا قيام هذه الليلة، قال: فقال: «إن الرجل إذا صلى مع الإمام حتى ينصرف حسب له قيام ليلة، قال: فلما كانت الرابعة لم يقم، فلما كانت الثالثة جمع أهله ونساءه والناس فقام بنا حتى خشينا أن يفوتنا الفلاح، قال: قلت: ما الفلاح؟ قال: السحور، ثم لم يقم بنا بقية الشهر»[1].

لكن الشأن ليس في التفاوت؛ إذ الخير كله في التأسي بالنبي ﷺ كيفية وكمية، بل المصيبة في إتيان المحرمات، وتضييع الواجبات، وتفويت الجماعات، والاشتغال بالملهيات، وترك الحفاظ على السنن الرواتب، والإعراض عن تلاوة القرآن ومدارسته، وإهمال أعمال القلب، والتقلل من الذكر والدعاء والصدقة وسائر أعمال البر، حتى كأن رمضان في حياة كثير من الناس لا يفرق عن بقية أيام العام بغير الطعام!

وذلك والله من تضييع النفس، وتفويت الفرص، وعدم استثمار الوقت، ومخالفة حال السلف الصالح وسمتهم، والذين كانوا يحرصون غاية الحرص على استغلال هذه الفرصة الثمينة بالتقرب إلى الله - عز وجل - بأنواع الطاعات من صلاة وذكر وصدقة ووجوه الإحسان وسائر أعمال البر.

بل إنه ليخشى على من تمادى في الغي أن يكون قريباً من قوله ﷺ حين صعد المنبر «فلما ارتقى درجة قال: آمين، فلما ارتقى الدرجة الثانية قال: آمين، فلما ارتقى الدرجة الثالثة قال: آمين، فلما نزل قلنا: يا رسول الله لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنا نسمعه! قال: إن جبريل عرض لي فقال: بُعْداً

---

(١) أبو داود (١٣٧٧)، وهو حديث صحيح.

لمن أدرك رمضان فلم يغفر له، قلت: آمين. فلما رقيت الثانية قال: بُعْداً لمن ذكرت عنده فلم يصلِّ عليك، قلت: آمين. فلما رقيت الثالثة قال: بُعْداً لمن أدرك أبواه الكبر عنده فلم يُدخلاه الجنة، قلت: آمين»[١].

وليس هذا فحسب، بل إن من عباد الله - تعالى - من لا يعنى بغير ليلة سبع وعشرين، مع أن الصحيح أن ليلة القدر ليست مقصورة عليها، وإن كانت من أوكد الليالي التي هي مظنتها.

ومنهم من يزيد على ذلك فيعنى بها عناية غير شرعية، كأن يخصها بعمرة؛ مع أن النبي ﷺ لم يحث أمته على الاعتمار في هذه الليلة تحديداً، وإنما حثهم على عمرة في مطلق الشهر: أوله أو أوسطه أو آخره، فمن لم تتهيأ له العمرة إلا فيها فلا بأس من الاعتمار، أما أن يتقصدها بعمرة معتقداً خاصيتها بذلك فالظاهر أنه غير مشروع، ولذا ترى الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - وهم أكثر منهم حرصاً على الخير، لم يحثوا على الاعتمار في هذه الليلة، ولم يحرصوا على أن تكون عمرتهم فيها؛ وكانوا يشتغلون في الليلة التي تتحرى كونها ليلة القدر بالمشروع فيها، وهو القيام، وهذا لا ينفي أن العمرة وسائر القرب المندوبة في العشر أفضل لشرف الزمان، فكيف إذا انضاف إليه شرف المكان، لكن ثبوت الفضل شيء، واعتقاد خاصية تلك الليلة بشيء لم تخص به شيء آخر[٢]، والله أعلم.

ومنهم من لا يعنى بليالي الشفع من العشر الأواخر؛ بحجة أن ليلة القدر

(١) المستدرك، للحاكم (٧٢٥٦)، وهو حديث صحيح لغيره.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن عثيمين: ٢٠/ ٦٩ - ٧١.

محصورة في ليالي الوتر، وهذا يحتاج إلى تحرير؛ فإن ليلة القدر تنتقل في سائر العشر؛ لأن الوتر المذكور في ليالي العشر يكون باعتبار الماضي، وباعتبار المستقبل، فـ «يكون باعتبار الماضي، فتطلب ليلة إحدى وعشرين وليلة ثلاث وعشرين وليلة خمس وعشرين وليلة سبع وعشرين وليلة تسع وعشرين. ويكون باعتبار ما بقي، كما قال النبي ﷺ: «لتاسعة تبقى، لسابعة تبقى، لخامسة تبقى، لثالثة تبقى» [(١)]، فعلى هذا إذا كان الشهر ثلاثين يكون ذلك ليالي الإشفاع، وتكون الاثنين وعشرين تاسعة تبقى، وليلة أربع وعشرين سابعة تبقى.. وإن كان الشهر تسعاً وعشرين كان التاريخ بالباقي كالتاريخ الماضي» [(٢)].

وإذا كان الأمر كذلك فينبغي أن يتحراها المؤمن في ليالي العشر الأواخر جميعها، كما قال النبي ﷺ: «تحروها في العشر الأواخر» [(٣)]، وإن كانت تأتي في السبع الأواخر أكثر، وأكثر ما تكون ليلة سبع وعشرين [(٤)]، والله أعلم.

ولله درُّ الصحابي الجليل والإمام المربي ابن مسعود - رضي الله عنه - والذي كان يترك عرض مزيد من البيان لبعض تلاميذه في مسألة توقيت هذه الليلة المباركة فيقول: «من يقُمِ الحَوْل يصب ليلة القدر» [(٥)]، مع أنه - رضي الله عنه - كان من أعلم الناس بها، لكنه كان يخاف عليهم أن يتقاعسوا عن

(١) أبو داود (١٣٨١)، وهو حديث صحيح.
(٢) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية: ٢/ ٤٧٥.
(٣) انظر قريباً من هذا اللفظ في: البخاري (٢٠٢٠).
(٤) انظر: الفتاوى الكبرى، لابن تيمية: ٢/ ٤٧٥.
(٥) الترمذي (٣٣٥١)، وهو صحيح.

الطاعة، ويفتروا عن مزيد من التذلل والخضوع له - سبحانه وتعالى - في كل وقت يسعهم ذلك.

والظن أن زيادة وعي الأمة وتقوية البواعث على مزيد من الإقبال على الله - سبحانه - هو مهمة أهل العلم وأرباب الدعوة، وبخاصة في هذا الشهر الفضيل التي تصفد فيه الشياطين، وتتهيأ فيه النفوس، وتساعد فيه أجواء التعبد على التوبة النصوح ومزيد من الابتهال لله تعالى، والعودة الصادقة لدينه عز وجل.

فعلى كل مصلح غيور، محب لانتشار البر وشيوع السعد في أوساط أمة محمد ﷺ أن يعمل على بث الفقه الراشد، والسيرة العطرة للنبي ﷺ وصحابته الكرام في إحياء هذه الليلة العظيمة واستجلاب بركاتها، إذ اللحظات عزيزة، والنفوس مقصرة، والفرص تزول، والعمر ينقضي، والحساب آت، ولا يبقى أمام العبد إلا التعرض لرحمة ربنا المتعال عز وجل(١).

❖ جعله ﷺ من نفسه قدوة لأصحابه:

ومن المواقف الشاهدة على ذلك:

١- **إفطاره ﷺ في السفر بعد العصر؛ ليراه أصحابه رضي الله عنهم، وذلك بعد أن بلغ بهم الجهد مبلغه، يدل لذلك:**

حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «سافر رسول الله ﷺ في رمضان فصام حتى بلغ عسفان. ثم دعا بإناء فشرب نهاراً يراه الناس ثم

---

(١) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية: ٢/ ٤٧٥.

أفطر»[١]، وفي رواية قال: «سافر رسول الله ﷺ عام الفتح في رمضان فصام حتى بلغ عسفان ثم دعا بإناء فشرب نهاراً ليراه الناس، ثم أفطر حتى دخل مكة وافتتح مكة في رمضان، قال ابن عباس: فصام رسول الله ﷺ في السفر وأفطر؛ فمن شاء صام ومن شاء أفطر»[٢].

وحديث جابر - رضي الله عنه - قال: «خرج رسول الله ﷺ عام الفتح صائماً، حتى أتى كراع الغميم والناس مع رسول الله ﷺ مشاة وركباناً، وذلك في رمضان، فقيل: يا رسول الله! إن ناساً قد اشتد عليهم الصوم، وإنما ينظرون إليك كيف فعلت! فدعا رسول الله ﷺ بقدح فيه ماء، فرفعه والناس ينظرون، فصام بعض الناس وأفطر بعض، فأخبر النبي ﷺ أن بعضهم صام، فقال رسول الله ﷺ: أولئك العصاة»[٣].

وفي رواية: «أن رسول الله ﷺ سافر في رمضان، فاشتد الصوم على رجل من أصحابه، فجعلت الناقة تهيم به تحت ظلال الشجر، فأخبر النبي ﷺ فأمره فأفطر، ثم دعا رسول الله ﷺ بإناء فيه ماء فوضعه على يده، فلما رآه الناس شرب شربوا»[٤].

٢- **خروجه ﷺ إلى المسجد ليصلي فيه من الليل**، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ خرج ليلة من جوف الليل فصلى في

(١) النسائي (٢٢٩١)، وهو حديث صحيح.
(٢) أحمد(٢٩٩٤)، وإسناده على شرط مسلم.
(٣) الطيالسي (١٧٧٢)، وهو حديث صحيح.
(٤) ابن حبان (٣٥٦٥)، وإسناده على شرط مسلم.

المسجد وصلى رجال بصلاته...»[1].

٣- **اعتكافه ﷺ لتحري ليلة القدر، وحثه لأصحابه الكرام - رضي الله عنهم - على ذلك**، ومن النصوص الدالة على هذا:

حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: «إن رسول الله ﷺ اعتكف العشر الأول من رمضان، ثم اعتكف العشر الأوسط في قبة تركية على سدتها حصير، قال: فأخذ الحصير بيده فنحاها في ناحية القبة ثم أطلع رأسه فكلم الناس فدنوا منه فقال: إني اعتكفت العشر الأول ألتمس هذه الليلة ثم اعتكفت العشر الأوسط، ثم أتيت فقيل لي: إنها في العشر الأواخر، فمن أحب منكم أن يعتكف فليعتكف؛ فاعتكف الناس معه»[2].

وحديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ يجاور في العشر الأواخر من رمضان، ويقول: تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان»[3].

إن بإمكان الداعية أن يدبج خطباً رنانة ومواعظ بليغة، لكنها لن تجد طريقها إلى القلوب كما لو رأت العيون تطبيق ما سمعت الأذن.

وليقين الحسن البصري - رضي الله عنه - في أثر القدوة فإنه لما كلمه الأرقّاء أن يحث الناس على العتق؛ لم يفعل حتى تمكن من شراء رقبة وأعتقها، ثم كلم الناس، فوقع كلامه موقعاً حسناً، وأكثر الناس من العتق،

---

(١) البخاري (٢٠١٢).

(٢) مسلم (١١٦٧).

(٣) البخاري (٢٠٢٠).

فما أجدر أن لا يفارق منا القول العمل، والحث التطبيق، متى أردنا أن يعم الخير ويشيع الإحسان ونخرج من طائل قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ - ٣].

نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا العمل بدينه، والدعوة بالحسنى إلى امتثال شرعه ومفارقة معصيته.

إن تقديم القدوة الحسنة بمثابة الضرورة والشرط الأساس لنجاح الدعاة والمصلحين، وكيف لا تكون كذلك وهي تشحذ الهمم، وتقوي في نفوس العباد البواعث الدافعة للعمل، وتتجاوز شغب التنظير، وتحسم الفكرة وتيسر فهمها، وتسهل التطبيق، وتقطع العذر بعدم الاستيعاب؛ ولذا فقد عني النبي الكريم ﷺ بها غاية العناية، وحرص ﷺ حرصاً ظاهراً في كثير من المواقف على أن يكون في موضع يَسْهُل على الناس فيه الأخذ عنه والتأسي به.

وقد أدرك أعداء الأمة وعبّاد الهوى والشهوات خطر الرمز والتأثير الضخم للقدوة فصنعوا الرموز المضللة وسوقوا القدوات المنحرفة لكل فئة من فئات أمتنا المسلمة، ومن خلال المجال الذي يستهويه ويسيطر عليه.

ولذا؛ فإن الدعاة في وقتنا مطالبون باستعراض السيرة النبوية وكتب التراجم ومدونات التاريخ والعمل على استخراج مواضع القدوة الآسرة وتقديمها للأجيال بالطرق والوسائل المناسبة هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فهم مطالبون بتقديم قدوات حية معاصرة تسهم في إزهاق الباطل وتعيد الثقة لأفراد الأمة المسلمة بأن استلهام قيم الإسلام

ومُثُله ليس مرحلة من التاريخ مضت، بل هو واقع موجود وأنموذج حي يعاش.

والحق أن المشكلة في هذا الجانب لا تكمن في فقدان القدوات الحسنة فهي بفضل الله - تعالى - كثيرة، وإن قلَّت بالنسبة لأزمنة مضت، بل تكمن في صناعة الرمز، وإغفال تقديم تلك القدوات الموجودة فعلاً، في وقت تعلقت النفوس الفارغة بأرباب الشهوات وأصحاب الأهواء الذين ملؤوا الدنيا ضجيجاً عبر وسائل الإعلام، وتقنيات الاتصال المختلفة برموز فاسدة وقدوات مضللة.

ولذا؛ فالمسؤولية عظيمة، والطريق إلى القيام بها يحتاج إلى جهود كبيرة وطول نفس مع الزمن، وقبل ذلك وبعده إلى رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ينوطون بأنفسهم تحملها، والقيام بمسؤوليتها قياماً جاداً مرضياً لله عز وجل.

وشهر الصوم فرصة مواتية لانطلاقة جادة في هذا الجانب فالشياطين مصفدة، والنفوس مهيأة، والنبي ﷺ قد ضرب أروع الأمثلة وقدم أجلّ النماذج التي يمكن من خلالها بناء نماذج صلبة متميزة من فتيان الأمة وفتياتها.

اللهم وفقنا لطاعتك، واصرفنا عن معصيتك، واجعلنا مفاتيح خير مغاليق شر، يا جواد يا كريم.

❖ **رحمته ﷺ بهم:**

وهذا جليٌّ في سيرته، إذ ما بعثه الله تعالى إلا رحمة للناس، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقال ﷺ: «إنما بعثت رحمة»[١]، فعمت رحمته، واتسعت شفقته.

ومن الأمور الدالة على ذلك في رمضان:

١- إفطاره ﷺ في السفر مراعاة لأصحابه وتطييباً لخواطرهم، مع عدم حاجته إلى الفطر، يدل لذلك:

حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: «أتى رسول الله ﷺ على نهر من السماء، والناس صيام في يوم صائف مشاة، ونبي الله على بغلة له، فقال: اشربوا أيها الناس. قال: فأبوا، قال: إني لست مثلكم، إني أيسركم، إني راكب، فأبوا. قال: فثنى رسول الله ﷺ فخذه فنزل فشرب وشرب الناس، وما كان يريد أن يشرب»[٢].

٢- أمره لأصحابه الكرام - رضي الله عنهم - بالإفطار في السفر قبل ملاقاة العدو، يدل لذلك:

حديث أبي بكر بن عبد الرحمن: عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: «رأيت رسول الله ﷺ أمر الناس في سفره عام الفتح بالفطر، وقال: تقوّوا لعدوكم، وصام رسول الله ﷺ»[٣].

---

(١) مسلم (٢٥٩٩).

(٢) أحمد (١١٤٤١)، وإسناده على شرط مسلم.

(٣) أبو داود (٢٣٦٥)، وهو حديث صحيح.

٣- نهيه ﷺ لأصحابه - رضي الله عنهم - **عن الوصال رحمةً بهم**، يدل لذلك:

حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: «نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل؟ قال: إني لست كهيئتكم؛ إني يطعمني ربي»(١).

٤- حثه ﷺ لأصحابه الكرام على تعجيل الفطر وتناول السحور، يدل لذلك:

حديث سهل بن سعد - رضي الله عنه - «أن رسول الله ﷺ قال: لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر»(٢).

وحديث العرباض بن سارية - رضي الله عنه - قال: «سمعت رسول الله ﷺ وهو يدعو إلى السحور في شهر رمضان، وقال: هلموا إلى الغداء المبارك»(٣).

٥- تركه ﷺ الصلاة بأصحابه - رضي الله عنهم - **جماعة في قيام الليل خشية من أن تفرض عليهم**، يدل لذلك:

حديث عائشة - رضي الله عنها - «أن رسول الله ﷺ صلى ذات ليلة في المسجد فصلى بصلاته ناس، ثم صلى من القابلة فكثر الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ، فلما أصبح قال: قد رأيت الذي صنعتم، ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم - وذلك في رمضان -»(٤).

---

(١) البخاري (١٩٦٤)، ومسلم (١١٠٥).
(٢) البخاري (١٩٧٥).
(٣) النسائي (٢١٦٣)، وهو حديث صحيح.
(٤) البخاري (١١٢٩).

٦- **تخفيفه ﷺ الصلاة حين كان إماماً بهم**، يدل لذلك:

حديث أنس - رضي الله عنه - قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي في رمضان فجئت فقمت إلى جنبه، وجاء رجل آخر فقام أيضاً، حتى كنا رهطاً؛ فلما حَسَّ النبي ﷺ أنّا خلفه جعل يتجوَّز في الصلاة، ثم دخل رحله فصلى صلاة لا يصليها عندنا، قال: قلنا له حين أصبحنا: أفطِنت لنا الليلة؟ قال: فقال: نعم؛ ذاك الذي حملني على الذي صنعت»(١).

والملحوظ من رحمة النبي ﷺ لأمته أنها مشوبة بمحبة، وممزوجة بتقدير واحترام، وأنه ﷺ ترك أحياناً بعض العمل الذي يرغبه متى كان التوجيه القولي غير كافٍ في إحداث الرحمة وتحقيق الرفق الذي يريده ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم.

فأحرى بعلمائنا ودعاتنا أن يتحلوا بهذه الرتبة السامقة والخلق الرفيع.

إن مراعاة ضعف الناس والرفق بهم، وتسهيل التطبيق عليهم، وعدم إلزامهم بما يلزم المرء نفسه به من فضائل وأعمال بر، والتدرج معهم رويداً رويداً في صعود مراقي الكمال.. مفتاح كسب القلوب وبوابة الحفاظ على فرح الناس بلزوم أروقة الطاعة والاستمرار في دروب الخير ونهج الهدى.

فيا ذا الجلال والإكرام! اجعلنا بصراء بدينك، رحماء بخلقك، حكماء في الدعوة إلى شرعك، يا أكرم الأكرمين.

---

(١) مسلم (١١٠٤).

❖ **خشيته ﷺ عليهم من وسوسة الشيطان:**

حيث خاف على أصحابه الكرام من كيد الشيطان ومكره، وأبعد نفسه عن مواطن الريبة ومواضع الإتمام، يشهد لهذا المنهج: حديث صفية - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً فحدثته، ثم قمت فانقلبت فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد؛ فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: على رسلكما، إنها صفية بنت حيي، فقالا: سبحان الله يا رسول الله! قال: إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً أو قال شيئاً»[1].

قال ابن حجر: «وفي الحديث من الفوائد:... بيان شفقته ﷺ على أمته وإرشادهم إلى ما يدفع عنهم الإثم، وفيه: التحرز من التعرض لسوء الظن والاحتفاظ من كيد الشيطان والاعتذار، قال ابن دقيق العيد: وهذا متأكد في حق العلماء ومن يقتدى به؛ فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلاً يوجب سوء الظن بهم، وإن كان لهم فيه مخلص؛لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم»[2].

ويتأكد ذلك بخاصة في زمن كثر فيه المغرضون الطاعنون في العلماء والدعاة بالإثم والبهتان، والذين لا يفتؤون يتتبعون الزلات ويتصيدون السقطات وفلتات اللسان، مما يوجب على الداعية الموفق مزيداً من الوعي والحذر الشديد.

---

(١) البخاري (٣٢٨١).

(٢) فتح الباري، لابن حجر: ٤/ ٣٢٩.

وإنَّ لضعف العناية بهذا الأمر نتائج سلبية على الدعوة والمدعوين الذين لا يجدون - غالباً - لكثير مما يثار حول طلبة العلم والدعاة جواباً شافياً ولا عرضاً مقنعاً؛ فحذر الداعية وإبعاده لنفسه عن مواطن الريبة يقي الدعوة الضرر، ويكفي المدعوين مؤونة ذلك، نسأل الله التوفيق والهداية والسداد.

❖ مخالطته ﷺ لهم وعدم ترفعه عنهم:

إذ أكثر من مجالستهم، وأحسن الاستماع لهم، ولم يأنف بنفسه عنهم، ومن الأحاديث الدالة على ذلك:

حديث شداد بن أوس - رضي الله عنه - «أن رسول الله ﷺ أتى على رجل بالبقيع وهو يحتجم وهو آخذ بيدي لثمان عشرة خلت من رمضان، فقال: أفطر الحاجم والمحجوم»[(١)].

وحديث عبد الله بن الحارث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «دخلت على النبي ﷺ وهو يتسحر فقال: إنها بركة أعطاكم الله إياها فلا تدعوه»[(٢)].

وحديث زيد بن ثابت - رضي الله عنه - قال: «تسحرنا مع النبي ﷺ ثم قام إلى الصلاة، قلت: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية»[(٣)].

وحديث العرباض ابن سارية - رضي الله عنه - قال: «سمعت رسول

---

(١) أبو داود (٢٣٦٩)، وهو حديث صحيح.

(٢) النسائي (٢١٦٢)، وهو حديث صحيح.

(٣) البخاري (١٩٢١).

الله ﷺ وهو يدعو إلى السحور في شهر رمضان، وقال: هلموا إلى الغداء المبارك»[1].

وحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله! هلكت، قال: ما لك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم...»[2].

ومخالطة الداعية للناس شرط لا يتحقق المراد من هداية الناس دونه، على أن المخالطة ليست مرادة لذاتها، وإنما لما تثمره من تعليم للخير، وتوجيه نحو الصواب والأفضل، وتصحيح للمفاهيم، ووقوف على الخطأ وتهذيب للسلوك، ومعاونة على الخير وتقوية لأهله، فالمهم هو المخالطة الواعية الموظَّفة توظيفاً حسناً، لا مجرد المخالطة التي يودي التمادي فيها إلى ضياع الأوقات في الهزال وما لا ينفع في الآخرة.

كما أن من المهم أن لا يستغرق الداعية وقته في المخالطة حتى لا تذهب الهيبة، وتفقد المخالطة روحها، وحتى لا ينسى بناء نفسه ورعايتها ومحاسبتها، ولذا اعتنى الداعية الأول والمربي الأعظم ﷺ بقيام الليل ولازم الاعتكاف في كل عام من رمضان؛ لما يحقق من خلوة تُمكّن من تجديد النفس وتهذيبها، وهو أمر لا غنى للداعية الرصين عنه.. فلنتوازن في سائر شأننا، وفي كافة جوانب علاقتنا، والله الهادي المعين.

---

(١) النسائي (٢١٦٣)، وهو حديث صحيح.

(٢) البخاري (١٩٣٦).

❖ استقباله ﷺ للوفود:

إذ استقبل ﷺ من وفد عليه، وأكرمهم، واعتنى بهم، قال ابن إسحاق: «وقدم رسول الله ﷺ المدينة من تبوك، وقدم عليه في ذلك الشهر وفد ثقيف»[١]، فضرب لهم رسول الله ﷺ قبة في ناحية المسجد ليكون أرقَّ لقلوبهم[٢]، وكان الطعام يأتيهم من عند رسول الله ﷺ[٣]، فلما أسلموا صاموا مع رسول الله ﷺ ما بقي من شهر رمضان، وكان رسول الله ﷺ يأتيهم كل ليلة بعد العشاء فيعظهم ويفقههم وهو قائم[٤]، ثم أمر أصغرهم عثمان بن أبي العاص - رضي الله عنه - بأن يؤم قومه؛ لأنه كان أحرصهم على تعلم القرآن والتفقه في الدين، وأوصاه ﷺ قائلاً: «من أمَّ قوماً فليخفف؛ فإن فيهم الضعيف والكبير والمريض وذا الحاجة؛ فإذا صلى وحده فليصلِّ كيف شاء»[٥].

وقد كان في القوم رجل مجذوم فأرسل إليه النبي ﷺ «إنا قد بايعناك فارجع»[٦].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٣٥.

(٢) أحمد (١٧٩١٣)، قال محققوه: «رجاله ثقات رجال الصحيح، غير أن في سماع الحسن من عثمان اختلافاً»، والظاهر سماعه منه لقول الحسن - كما في التاريخ الكبير للبخاري: ٦/ ٢١٢ -: «كنا ندخل على عثمان بن أبي العاص».

(٣) انظر: جوامع السيرة، لابن حزم: ٢٥٧.

(٤) السيرة النبوية لأبي شهبة: ٢/ ٥٣٠.

(٥) أحمد (١٧٨٩٩)، وإسناده على شرط مسلم.

(٦) مسلم (٢٢٣١).

وقد كان ﷺ يسمع منهم ويجيب عن أسئلتهم، كما في حديث جابر - رضي الله عنه - «أن وفد ثقيف سألوا النبي ﷺ فقالوا: إن أرضنا أرض باردة؛ فكيف بالغسل؟ فقال: أما أنا فأفرغ على رأسي ثلاثاً»[(١)].

إن مخالطته ﷺ للناس في رمضان وعنايته بمن يفد عليه من الوجهاء وأعيان الناس والراغبين في التلقي والأخذ عنه ﷺ صفحة من جهاده وجهده الدعوي، اعتراها التقصير وبعض الإهمال في وقتنا، مما يتطلب التفاتة جادة من الدعاة المتأسين بنبيهم ﷺ، وبخاصة من ابتلاه الله - تعالى - بوجاهة علمية أو دعوية جعلته مقصد الناس ومضرب رحالهم وما يتطلبه ذلك من كرم وحلم وبذل علم ووقت وجاه، وتقديم المنهج الرباني الحق بصورته الناصعة التي أنزله الله - تعالى - عليه، والوقوف الجاد مع قضايا الأمة ودعم مشاريع نهوضها المختلفة.

❖ إنكاره ﷺ المنكر:

يدل لذلك:

حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - «أن رسول الله ﷺ خرج عام الفتح إلى مكة في رمضان، فصام حتى بلغ كراع الغميم فصام الناس، ثم دعا بقدح من ماء فرفعه حتى نظر الناس إليه ثم شرب، فقيل له بعد ذلك: إن بعض الناس قد صام، فقال: أولئك العصاة أولئك العصاة»[(٢)].

---

(١) مسلم (٣٢٨).
(٢) مسلم (١١١٤).

وإذا كان النبي ﷺ قد أنكر على من صام مع جواز الصوم في السفر في الأصل؛ إما لأنهم خالفوا الأمر الجازم بالفطر، وإما لكون السفر شق عليهم جداً[١]، فالواجب على كل مسلم أن يعمل بحسب قدرته على إذاعة المعروف، وتطهير شهر الطاعة والخير من الموبقات، والتي بدت في كثير منها متجاوزة حد الشهوة الذاتية والخطأ العفوي إلى الصناعة المحترفة والقصد المؤسسي، وبخاصة في بيته ووسط قرابته ومحيط عمله؛ امتثالاً لقوله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[٢].

❖ تأديبه ﷺ من خشي عليه التنطع:

وهذا أسلوب للتربية لا غنى للمربي الحكيم عنه أحياناً.

يدل لذلك: حديث عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنهما - «أنه سأل رسول الله ﷺ أيقبل الصائم؟ فقال له رسول الله ﷺ: سل هذه «لأم سلمة»، فأخبرته أن رسول الله ﷺ يصنع ذلك، فقال: يا رسول الله! قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال له رسول الله: أما والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له» [٣].

وحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال:«نهى رسول الله ﷺ عن الوصال في الصوم، فقال له رجل من المسلمين: إنك تواصل يا رسول الله؟

---

(١) انظر: شرح النووي على مسلم:٧/ ٢٣٢.
(٢) مسلم (٤٩).
(٣) مسلم (١١٠٨).

قال: وأيكم مثلي؟! إني أبيت يطعمني ربي ويسقين، فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يوماً ثم يوماً ثم رأوا الهلال، فقال: لو تأخر لزدتكم! كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا»[١].

وحديث أنس - رضي الله عنه - قال: «... فأخذ يواصل رسول الله ﷺ، وذاك في آخر الشهر، فأخذ رجال من أصحابه يواصلون، فقال النبي ﷺ: ما بال رجال يواصلون؟ إنكم لستم مثلي! أما والله لو تَمَادَّ لَي الشهر لواصلت وصالاً يدع المتعمقون تعمقهم»[٢].

إن شريعة الإسلام شريعة اليسر والسهولة «ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه»[٣]، ولطالما تواردت النصوص على هذا الأصل: أصل التيسير ورفع الحرج، واعتماد الرفق وترك التكلف.

وهذه خاصية الدين الرباني المراعي لواقع الناس وأحوالهم، الملائم للفطرة، والذي أراد الله - تعالى - له البقاء حتى تقوم الساعة، فالحمد لله على نعمة الإسلام.

وتنكيله ﷺ بمن أرادوا الوصال ينسجم مع ذلك الأصل؛ إذ خشي ﷺ عليهم العنت والمشقة، لكن لما كانت بعض النفوس لا يكفيها الكلام احتاج ﷺ إلى العقوبة، ولم تكن تلك العقوبة على أمر محرم، فلو كان محرماً ما فعلوه

---

(١) البخاري (١٩٦٥).

(٢) مسلم (١١٠٤).

(٣) البخاري (٣٩).

ولما أقرّهم عليه، بل زادهم من جنس ما رغبوا فيه، حتى يدركوا الفرق بينهم وبينه ﷺ، وهو النبي الموصول من ربه - تعالى - بألطاف ومعانٍ قلَّ من يدركها.

❖ أمره ﷺ بإخراج زكاة الفطر:

يدل لذلك:

حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير، على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين، وأمر بها أن تؤدّى قبل خروج الناس إلى الصلاة»(١).

وحديث عبد الله بن ثعلبة - رضي الله عنه - قال: «خطب رسول الله ﷺ الناس قبل الفطر بيوم أو يومين، فقال: أَدُّوا صاعاً من بر أو قمح بين اثنين، أو صاعاً من تمر، أو صاعاً من شعير، على كل أحد صغير أو كبير»(٢).

وحديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: «كنا نخرج في عهد رسول الله ﷺ يوم الفطر صاعاً من طعام. وقال أبو سعيد: وكان طعامنا الشعير والزبيب والأقط والتمر»(٣).

وحديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين، فمن أداها

---

(١) البخاري (١٥٠٣).
(٢) أبو داود (١٦٢١)، عبد الرزاق (٥٧٨٥)، واللفظ له، وهو حديث صحيح.
(٣) البخاري (١٤٣٩).

قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات»[١].

لكن من لم يعلم بالعيد إلا بعد الصلاة، أو كان وقت إخراجها في بادية ونحوها، أو في بلد ليس فيه مستحق لها، أجزأ إخراجها عقب الصلاة عند تمكنه من ذلك؛ لأن هذا وسعه، والله عز وجل رحمن رحيم، ولا يكلف نفساً إلا وسعها[٢].

ومع رغبة أهل الإسلام في وقتنا في صنوف الخير إلا أن عنايتهم بأداء هذه الفريضة على وجهها المحقّق للحكمة من مشروعيتها قد ضعف، وهو ما يتطلب من الدعاة بذل المزيد من الجهود في التوجيه والتذكير بشرف هذه الشعيرة العظيمة وبالكيفية الشرعية لإخراجها والحكمة من مشروعيتها، حتى يعم الفرح في عيد الفطر أوساط كل بيت من بيوتنا المسلمة: فقيرها وغنيها.

وفي هذه المسألة وما يعتريها من خلاف سنوي، أشبه الخلاف في مسألة عدد ركعات صلاة التراويح، لابد من مراعاة عدة قضايا، لعل من أبرزها:

١- ضرورة إعذار القائلين بجواز إخراج النقد والعاملين بفتواهم من المسلمين، وأنهم - وإن رجحنا خلاف قولهم - ما صدروا إلا عن اجتهاد ورغبة في تحقيق الحكمة من مشروعية زكاة الفطر. فالخلاف في المسألة قديم، وحسمه كلياً غير ممكن، والأولى أن يختار كل طالب علم ما ترجح دليله لديه، وأن يتسع صدره عقب ذلك للخلاف، وتتجه جهود الجميع نحو توعية العامة

---

(١) ابن ماجه (١٨٢٧)، وهو حديث حسن.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن عثيمين: ٢٠/ ١١٢.

بأنه من الخلاف السائغ، وتدعيم الثقة بأهل العلم الأثبات، وترسيخ مقاصد العبادات، بدلاً من استمرار الجدل غير المثمر، بل المفسد للقلوب والأعمال، المضيع للجهود، النازع للبركات، كيف وقد رفع العلم بليلة القدر حين اختصم رجلان من المسلمين في عهد النبوة!

٢- أن الأولى بالعبد الراغب في السلامة أن يخرج من الخلاف في المسألة، وذلك بأن يخرجها طعاماً من قوت أهل البلد الذي هو فيه؛ متابعة لنبيه ﷺ، وإجماع الأئمة على إجزائه، بينما هم مختلفون في إجزاء إخراج النقد.

٣- ضرورة مراعاة إغناء الفقراء عن الحاجة يوم العيد، وذلك غير متحقق في إخراج بعض الصائمين ما يرغبون به من طعام، لا ما يرغب به الفقراء ويحتاجونه، وهذا مع إجزائه ولا شك، إلا أنه لا ينسجم وتحقق الحكمة من زكاة الفطر بإغناء الفقراء والعمل على سد حاجتهم يوم عيدهم، والله أعلم.

كما أنه غير متحقق في بعض الممارسات الخاطئة المتمثلة في إخراج المعروض من طعام غير جيد، وتكديسه أمام الفقير، الذي لا يجد غير بيعه للتاجر البائع، والذي بدوره يقوم ببيعه لمتصدق آخر، ونتيجة هذا: ثراء التاجر، وعدم استغناء الفقير في يوم عيده!

والخطأ في هذه الحالة ناشئ من الضعف في تحري الطعام الأنسب للفقير المتعفف، وعدم بذل الجهد في الوصول إليه، وإغنائه عن الحاجة يوم فرحه وسروره.

ولو اعتنى الناس باختيار الطعام الأنفع، والنوع الأجود لظهرت لنا بعض حكم إخراج الطعام.

وسيجد الحريص الحازم بغيته من الفقراء في أرقى مدن العالم، إذ لا يظهر غنى فاحش إلا بحدوث فقر مدقع في معادلة عالمنا الجانح نحو الرأسمالية المكدسة للثروات في أيدي أقل عدد ممكن من البشر.

٤- إدراك أن الأصل هو عدم نقل زكاة الفطر من بلدة إلى أخرى داخل الدولة الواحدة أو خارجها، وعلى المسلم أن يبادر إلى إخراجها في محل إقامته، ولذا فما نراه من توسع حادّ في هذه المسألة هو محل نظر ظاهر، ولو سوغنا نقلها من بلدة إلى أخرى؛ لعدم معرفة فقير أو مراعاة لاحتياج ظاهر فلا بد من التوثق من كونه عن طريق قوي أمين لتبرأ الذمة وتسقط العهدة الشرعية.

٥- أن التوسع الحاصل في توكيل بعض المؤسسات الخيرية، والتي تتوكل في عامتها عن الغني في الإخراج لا عن الفقير في الاستلام، بدليل أنها تعطي من تشاء وتحرم من تشاء عقب العيد.. موطن إشكال ظاهر، وما لم يتثبت الصائم في أمانة من يوكله في إخراج زكاة فطره، وفي سلامة إجراءاته سلامة تجعله وكيلاً بحقٍّ عن الفقير في الاستلام، فقد لا تخلو ذمته، ولا يسقط الواجب الشرعي عنه.

❖ إيكاله ﷺ بعض الأعمال إليهم:

ومن ذلك ما جاء في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «وَكَلَني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان؛ فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام؛

فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ...»[١].

وفي هذا تخفيف من الجهد عليه ﷺ.

وشخص بمفرده لا يطيق القيام بجميع المهام، فلا مفرّ من توكيل الآخرين وتفويضهم في القيام بكثير من الأعمال، وبذلك يمكن للداعية إنجاز العديد من المهام التي تحت يديه.

ولن يتحقق ذلك ما لم يكن للداعية ثقة بأصحابه، ومعرفة جيدة بجوانب التميز التي يمتلكها كل شخص منهم؛ حتى ينجح تفويضهم وتتم انطلاقتهم فيما أوكل إليهم.

وكذا كان ﷺ يعامل صحبه الكرام، حتى كانوا مصابيح دجى وقادة أمة ورجال دولة - رضي الله عنهم -، فأحيا الله - تعالى - بهم الأرض وأنار بهم سماء البشرية.

إنها وكفى: تربية القادة، لا تخريج الأتباع وصناعة العبيد!

والملاحظ اليوم في واقع كثير من الصالحين أنه يريد الإحاطة بكل خير يمكنه القيام به فلا يقوم بعامتها، أو يقوم بأعمال خيرة يمكنه أن يقوم بأفضل منها، أو يوكل القيام بها إلى شخص حوله وهو غير قادر على أن يقوم بشيء منها.

وعلماؤنا وكبار دعاتنا اليوم مطالبون أكثر من أي وقت مضى بمثل هذا التفويض النبوي، وبخاصة في مثل هذا الموسم المبارك الذي تعظم فيه أبواب البر وتكثر دروب المعروف؛ تدريباً لأجيال الدعاة وتأهيلاً لهم من جهة،

---

(١) البخاري (٥٠١٠).

وتخفيفاً عليهم وصيانة لأوقاتهم عن المهام غير الجسام، تلك التي تورث الانهماك في التنفيذ بالشكل الذي يستهلك أوقاتهم، فلا يبقى لهم منها حظ وافر للعمل الفاضل من جهة أخرى.

نسأل ربنا الرحمن أن يوفق أهل العلم والبصيرة، وأهل النفوذ والإدارة في ساحاتنا العلمية والدعوية لما فيه صلاح الإسلام وعز المسلمين.

❖ تحضيضه ﷺ على الاستمرار في الطاعة عقب الشهر:

استمرار المرء على الطاعة من معالم فلاحه ومظاهر توفيقه، وعنوان قبول الله - تعالى - عمله منه، ولذا عني النبي الرحيم ﷺ بحثّ أصحابه الكرام على المداومة - عقب انصرام الشهر المبارك - على شعيرة رمضان العظمى: الصيام، فقال: «من صام رمضان، ثم أتبعه بست من شوال فكأنما صام الدهر»[١]؛ لأن أحب الأعمال إلى الله - تعالى - أدومها وإن قلّ، والحسنة تقول أختي أختي، والسيئة كذلك، ولذا فقد كان كل عمل النبي ﷺ ديمة[٢]، وكان إذا عمل عملاً أثبته[٣].

وكيف لا يداوم الحازم المتأسي بنبيه ﷺ على الأعمال الصالحة عقب هذا الشهر المبارك ورب الشهور واحد، والأيام ترحل، والعمر يزداد كل يوم قصراً، وسلعة الله غالية، ولن يقوى أحد على الظفر بها إلا أن يُعظِم التودد إلى خالقه، ويزيد من تجويد عمله، ويُديم الاجتهاد في السعي إليها؛ ليتهيأ له

---

(١) ابن ماجه (٢٤٣٣)، وهو حديث صحيح.

(٢) انظر: البخاري (٦١٠١)، وأبو داود(١٣٧٠).

(٣) انظر: مسلم (٧٤٦).

نيل رحمة توجه إياها.

صحيح أن من السنة أن يجتهد المرء في رمضان ما لا يجتهد في غيره، كما يدل لذلك حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان»[١]، وحديث عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيرها»[٢].. لكن هذه النصوص - والتي تدل على مشروعية التفاوت بين العمل في رمضان والعمل في غيره - هي ذاتها تدل على أن حياة الطاعة ليست مقصورة على لحظات هذا الموسم، فمتى انصرمت انقطعت الطاعات، يدلك على ذلك قوله: «أجود»، وهي للتفضيل، وتدل على أن أصل الفعل موجود في الوقتين، ولكن وجوده في أحدهما أكثر من الآخر.

أما قول عائشة رضي الله عنها: «يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيرها»، فهي تثبت أن الاجتهاد ثابت في كلٍّ، لكن الغاية في الاجتهاد كانت في العشر الأواخر، وعليه؛ فهذا الشهر المبارك موسم للتزود من التقوى، فمن ظفر بزاده تمكن من مواصلة المسير بقوة ونشاط إلى المحطة الأخرى، سائراً بقوة الدفع إلى العام القادم.

والظاهر أن ذلك لن يقع للعبد ما لم يُقوِّ بواعث التعبد لديه، فيتعرف على عظمة خالقه عز وجل، من خلال صفات الجلال والكمال والإنعام التي له سبحانه، وعلى هوان الدنيا وعظم الآخرة، وعلى ما أعدّه الله – تعالى –

---

(١) البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨) واللفظ له.

(٢) مسلم (١١٧٥)، والترمذي (٧٩٦) واللفظ له.

لعباده المؤمنين في الجنة التي لا خَطَر لها[١]، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وما أعدّه - تعالى - لمن أعرض عن ذكره من معيشة ضنك ونار تلظى.. لتعظم المحبة له - سبحانه - ويزداد خوف العبد منه ورجاؤه له.

ولن يقع ما لم ينظر المرء للطاعة على أنها سبيله للأنس والراحة؛ لأن من أحب الشيء استمتع به فأتقنه وزاد منه، وقد كان ذلك حال النبي ﷺ مع العبادة، وانظر إلى مقولته ﷺ لبلال - رضي الله عنه -: «يا بلال: أقم الصلاة، أرحنا بها»[٢]، وقوله ﷺ:«وجعلت قرة عيني في الصلاة»[٣]، وقوله ﷺ في إحدى الليالي لزوجه: «يا عائشة ذريني أتعبد لربي، قالت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما سرَّك، قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي»، وذكرت من صلاته وخشوعه وبكائه عجباً[٤].

والفارق ظاهر بين من هذه حاله، وبين من يقبل على العبادة فيؤديها بتثاقل، وبغيته فقط إبراء الذمة وإسقاط عهدة الواجب.

ولو تأمل العبد مقدار الخسارة التي يجنيها من جراء بطالته العبادية والدعوية في غير مواسم الخير، سواء على المستوى الشخصي، أو على

---

(١) أي: لا عوض لها ولا مثل، ولا يقال ذلك إلا في الشيء الذي له قدر ومزية، انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٢/ ٢١٥.

(٢) أبو داود (٤٩٨٥)، وهو حديث صحيح.

(٣) النسائي (٣٩٣٩)، وهو حديث صحيح.

(٤) ابن حبان (٦٢٠)، وإسناده على شرط مسلم، وقد تقدم ذكر القصة كاملة في مطلع الفصل الثاني من هذا الكتاب.

مستوى الأمة.. لوجدها جسيمة.

فكم من الأوقات تمضي عليه سدىً مع أن العبد يوم القيامة يتمنى لو أضاف إلى رصيده خيراً، مهما قلّ مقداره وتدنّى أجره؛ ليدرأ عن نفسه عقوبة، أو ليرتفع درجة.

ولو حسبنا مقدار الأوقات والجهود والإمكانات المضاعة من مجموع أفراد الأمة، التي لو استثمرت بشكل جيد لمصلحة الأمة في المجالات المختلفة دعوية أو غيرها.. لعلمنا حجم الجناية التي تحدثها البطالة والانقطاع عن شعائر التعبد وأعمال البر في غير مواسم الخيرات على الصعيد الشخصي والجمعي.

إن أبرز ما في هذا الموسم المبارك ونحوه أنه يقنع الموفق أن بإمكانه أن يفعل الكثير والكثير، متى أَخَذ نفسه بمأخذ الجد، وقوّى استعانته بالله - تعالى - وصلته به.

إن ساعات رمضان تجعل من العبد نفسه قدوة عملية لنفسه في غير رمضان، إذ بإمكانه أن يفعل في غيرها ما فعل فيها من خيرات، بدليل أنه فعل! والتجربة خير برهان، والواقع أكبر دليل، والملهيات والعوائق النفسية والاجتماعية وغيرها التي قَدُر على تجاوزها في موسم الخير يمكنه تجاوزها في غيره كما تجاوزها فيه، والدافع الذي مكّنه من تجاوزها ما زال موجوداً، إذ الرب - سبحانه - بالمرصاد، والجنة والنار مخلوقتان، ولكل منهما أهلون.

فلنبادر ونحن ما زلنا في هذا الموسم العظيم، قبل أن تغلق أبواب الجنان، وتفتح أبواب النار، وتُطْلق الشياطين.. أن نرسم لأنفسنا الخطط، ونعدّ لها البرامج الخيرة التي سنسير عليها في بقية العام، حتى الموسم القادم ومحطة

التزود الأخرى، آخذين أنفسنا بالجد الذي ابتدأناه في رمضان، مستعينين بالله - سبحانه - الذي لا حول لنا ولا قوة إلا به، فنحن عبيده الفقراء إليه.

والظاهر من قوله ﷺ: «من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال» أن على من فاته شيء من أيام رمضان أن يتم قضاءها قبل أن يبادر إلى صيام أيام الست من شوال؛ لأنه لا يقال عن أحد: إنه قد صام رمضان، وقد بقي عليه منه شيء، فإذا أتم القضاء أتبعه بصيام الست مجموعة أو مفرقة، في أي أيام الشهر، وإن كانت المبادرة أفضل من التأخير، وصيامها في أيام الاثنين والخميس وأيام البيض أفضل من صيامها في غيرها، والله أعلم.

اللهم سددنا، وألهمنا الرُّشد، وارزقنا رحمتك، والمزيد من إحسانك، يا أعظم المعطين، ويا خير الراحمين.

خاتمة

أحسب أن تلك الصفحات المباركات قد أطلعتنا على طرف يسير من السيرة العطرة لنبينا الحبيب ﷺ، نعمنا بمعرفتها، ووقفنا في ظلالها وقوفاً غير طويل.. حيث تخبرنا عن حال إمام الهدى ﷺ في فرحه بمقدم هذا الشهر الكريم وتهيؤه له، وكيف كان حاله ﷺ فيه مع ربه الجليل: تعبداً ورقاً واجتهاداً ومداومة.

مع قيامه بحق زوجاته الكريمات: عشرة وإحساناً وتعليماً وإرشاداً.

إضافة إلى مهمته الكبرى مع أمة بأكملها.. يعلّم جاهلها، ويرشد عالمها، ويصلح حالها، ويقوم بشأنها.. لا يميل به واجب عن واجب، ولا يشغله جانب عن جانب.

إنه الكمال البشري الذي يشع نوراً فيرسم الأسوة، ويضع معالم القدوة، ويقيم الحجة على الخلق علماء ودعاة وعامة.

فما أمسَّ حاجتنا إلى التنعم في ظلال سيرته ﷺ، والعيش مع أخباره، والتعرف على أحواله، وترسم هديه ﷺ وطريقته.. كيف لا؟! وذلك الطريق هو الصراط المستقيم والسبيل المقصور عليه نيل محبة الخالق الجليل والقرب منه تعالى، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

وأظن بأنا متى حققنا ذلك فإنا بإذن الله - عز وجل - سنرى تحسناً مشهوداً في التدين، وضموراً ملحوظاً في مظاهر التباين الشديد بين هذا الهدي النبوي المشرق، وبين واقع كثير من أبناء أمتنا في هذا الشهر الكريم، والذي مردّه إلى أمور عدة، لعل من أبرزها:

١-الجهل بأحوال النبي ﷺ وسيرته العطرة في شهر رمضان.

٢-الغفلة عن حِكَم الصيام ومقاصد العبادات التي تشرع في رمضان.

٣-اعتقاد كثير من العباد بأن الصيام جملة من التروك فقط، متناسين مشروعية عدد وافر من القُرَب التي تتضافر فيما بينها، لتحقيق مقاصد الصيام والآثار المرجوة منه.

٤- الغفلة عن إدراك أثر المعاصي والذنوب على الصيام، وأنها وإن لم تبطله فإنها تنقص أجره، بل متى عظمت فإن المرء قد لا يحصل شيئاً من الثواب، مع تحمله في الوقت ذاته معاناة الجوع والعطش.

٥- الإكثار من الوقوع في أعمال لا تساعد على تحقق غايات الصيام؛ من سرف في الطعام، وتوسع في تحصيل الملذات، وسهر في الليل، ونوم في النهار، والتوسع في الصِّلات وتكوين العلاقات، ومخالطة من لا يُعنى بوقته من البطالين، وركون إلى الدنيا، واشتغال مبالغ فيه بجمع حطامها، مع ضعف الاهتمام بشغل الآخرة.

ولا طريق لتجاوز تلك الإشكالات ونحوها ومعالجة آثارها إلا من خلال أمور، على رأسها:

أولاً: أن يقوم العلماء والدعاة بدورهم المنشود في تربية الأمة وتوجيهها، سواء أكان عن طريق اختلاطهم بالناس بهدف تعليمهم، أم عبر تقديم نماذج

حية من القدوات الحسنة لهم، والتي تتمثل في الواقع المعاش والسلوك الأمثل والممارسات المنضبطة بالشرع، أم عن طريق الولوج في وسائل الإعلام واستثمار تقنيات الاتصال المتنوعة.

ثانياً: أن يستوعب المسلم الحازم الراغب بصدق في النجاة حقيقة وظيفته في هذه الحياة، وأهمية الوقت بالنسبة له؛ ليكون ذلك دافعاً له نحو مزيد من الجدية والبعد عن الغفلة في حياته، والموازنة بين ما يمكن أن يقوم به من طاعات وقُرَب، ليختار ما هو أعلى رتبة وما هو أكثر إصلاحاً لقلبه، ولكي يستفيد من نعمة الوقت بشكل أفضل، بعيداً عن الإغراق في المباحات والمستحبات على حساب الفرائض والواجبات، وأن يقوم بترويض نفسه على القيام بالأعمال الصالحة؛ كالتبكير للصلاة، والجلوس بعد الفجر في المسجد إلى طلوع الشمس.. ونحوها، ليتعود على ممارستها والاستمرار عليها بعد رمضان.

ثالثاً: أن يعمل الجميع على تعميق روح الاتباع للنبي ﷺ، والتأسي به في سائر شؤون الحياة بعامة، وفي شهر الصيام بخاصة، وهذا يتطلب العناية بتعلم وتعليم فقه الصيام وآدابه، واستيعاب حِكَم الصيام وغاياته، وتقريب الوسائل التي تتيح لسائر فئات الأمة الاستفادة من الصيام في تهذيب النفوس، ونشر الخير والفضيلة ومحاربة الشر والرذيلة، بشكل أفضل.

رابعاً: أن تقوم مؤسسات التوجيه، سواء أكانت إعلامية أم تعليمية أم تربوية أم ترويحية بدورها التوجيهي المنطلق من ديننا، والمدرك لطبيعة التحديات التي تمر بها أمتنا عن طريق نشر الجدية، والاستمساك بالدين بقوة

في سائر حياة الأمة بعامة، وشبابنا منهم وفتياتنا بصفة خاصة.

خامساً: أن يعيد الدعاة - أفراداً ومؤسسات - تقويم برامجهم الدعوية، سواء أكان ذلك من حيث الكم أم الكيف؛ حتى تساعد بشكل أفضل على معالجة هذا التباين، وتكون قادرة على إزالة آثاره؛ ليتحقق تقوانا ويقوى إيماننا بإذن الله تعالى.

أسأل الله - تعالى - أن يلهمنا رشدنا، وييسر لنا مفاتيح المعروف، وسبل الهداية، وأن يشكر كل من أعان على تقديم هذا الكتاب بإنضاج أفكاره، وتصحيح عباراته، والمساعدة على إخراجه.

وبارك اللهم لنا في أوقاتنا ومواسم الطاعات التي مننت بها علينا، وسهل علينا استثمارها، وتقبل قرباتنا فيها، وأصلح أولادنا وأهالينا، وبارك في أموالنا بجود منك وإحسان يا رب العالمين.

وصلى الله وسلم على نبينا الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المحتويات

مقدمة ٥

الفصل الأول: أحوال النبي ﷺ قبل قدوم رمضان ٩

❖ إكثاره ﷺ من الصيام في شعبان ١٢

❖ تبشيره ﷺ أصحابه بقدومه ١٤

❖ بيانه ﷺ بعض أحكام الصيام ١٥

❖ عدم دخوله ﷺ في الصيام إلا برؤية أو إتمام عدة شعبان ١٦

الفصل الثاني: أحوال النبي ﷺ مع ربه في رمضان ٢٣

❖ صيامه ﷺ شهر رمضان ٢٧

❖ قيامه ﷺ الليل في رمضان ٤٢

❖ اعتكافه ﷺ وخلوته بربه سبحانه ٥١

❖ اجتهاده ﷺ في العشر الأواخر ٦٢

❖ حرصه ﷺ على تحري ليلة القدر وقيامها ٦٣

❖ مدارسته ﷺ القرآن مع جبريل ٦٥

❖ تواضعه ﷺ وزهده ٧١

❖ إكثاره ﷺ من البر والصدقة ٧٤

❖ جهاده ﷺ في رمضان ٧٦

❖ مخالفته ﷺ أهل الكتاب في أعمال رمضان ٨٠

❖ إكثاره ﷺ من العمل في رمضان آخر حياته ٨١

الفصل الثالث : أحوال النبي ﷺ مع زوجاته في رمضان ٨٣

❖ تعليمه ﷺ لهن ٨٥

❖ معرفتهن بحاله ﷺ ٩٠

❖ حثه ﷺ لهن على فعل الخير وإعانتهن ٩٢

❖ إذنه ﷺ لهن بالاعتكاف معه ٩٥

❖ قيامهن معه ﷺ ببعض العبادات ٩٦

❖ حسن عشرته ﷺ لهن ٩٨

❖ خدمة نسائه ﷺ له ١٠٥

❖ زواجه ﷺ ببعض نسائه في رمضان ١٠٧

الفصل الرابع : أحوال النبي ﷺ مع أمته في رمضان ١٠٩

❖ تعليمه ﷺ لأصحابه ١١٢

❖ إرشاده ﷺ لأصحابه ووعظهم ١١٥

❖ تحفيزه ﷺ لأصحابه على المبادرة بالعمل الصالح ١١٦

❖ إفتاؤه ﷺ لهم ١٢٠

❖ إمامته ﷺ بالناس ١٢٧

❖ خطبته ﷺ وحديثه عقب بعض الصلوات ١٢٩

❖ إرشاده ﷺ لهم إلى مراعاة حكم الصيام ومقاصده ١٣١

❖ حثه ﷺ لهم على تحري ليلة القدر ١٣٧

❖ جعله ﷺ من نفسه قدوة لأصحابه ١٤٦
❖ رحمته ﷺ بهم ١٥٠
❖ خشيته ﷺ عليهم من وسوسة الشيطان ١٥٣
❖ مخالطته ﷺ لهم وعدم ترفعه عنهم ١٥٤
❖ استقباله ﷺ للوفود ١٥٦
❖ إنكاره ﷺ المنكر ١٥٨
❖ تأديبه ﷺ من خشي عليه التنطع ١٥٩
❖ أمره ﷺ بإخراج زكاة الفطر ١٦٠
❖ إيكاله ﷺ بعض الأعمال إليهم ١٦٤
❖ تحضيضه ﷺ على الاستمرار في الطاعة عقب الشهر ١٦٥
خاتمة ١٧١
المحتويات ١٧٥